AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00845 8279

P
77
.M
Z8
193
v.1

51-B 2099

Cat APr. 17 1/2

1B 15

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

الجزء الخامس / صفحة /

٣

٦/٩
٣/٧

الى كم ذا التخلف والتوانى
وكم هذا التمادى فى التمادى ص١٤٧

وما ماضى الشباب بمسترد
ولا يوم يمر بمستعاد
ص١٤٧

Don't make it personal
يتذكرون الماضى
= يطرقب على
تاج الذكر مشهور
على من تدور الدائرة = ينهزم
حث اليه = اسرع له

١٥٠

SITY
الجا

EX. LIBRIS KRAUS
No, 469

لجنة التأليف والترجمة والنشر

الى الاستاذ كراوس
مع اصدق التحيات

طه حسين

Taha Husayn
Ma'a al-Mutanabbi.

مع المتنبي

— ١ —

PJ
7750
M8
Z85
1936
V.1
C.1

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٣٦

٨١١٫٤٠٩
متني م ط

49026

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ،
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صدق الله أيتها الزوج الكريمة وتمت كلمته ، ففي ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفي ذرى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول . وان قلبي ليملؤه البر ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبديني وتعيدين فيه ، أثناء ذلك ، من حث لي على الراحة ، ورغبة الي في التروض ، والحاح علي في الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة في جبال (الألب) ، وما كنت ألقى به عطفك من اباء واعراض ، وما كان يثور في نفسك من غضب مصدره الرحمة والاشفاق . واني لأعلم أني كنت في ذلك قاسيا جافيا ، ولكني أعلم أني مدين لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب ، فأذني لي في أن أقدمه اليك لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرين

الـكتاب الأول

[illegible]

١

لا أريد أن أدرس المتنبى ، فأنا لم أترك القاهرة ، ولم أعبر البحر ، ولم آو إلى هذه القرية للبحث والدرس ، و إنما اصطنعت هذا كله طلباً للراحة ، و إيثاراً للفراغ الذى أخلو فيه إلى نفسى .

فقد طالما شغلت عنها فى القاهرة بأحداث الحياة الخاصة والعامة . وقد طالما اشتقت إلى أن ألقاها وجهاً لوجه ، وأدير بينها و بينى ألوان الحديث . وأفر فيه من نفسى فأنا كثير السأم لها والضيق بها ، كما قلت فى غير موضع . لا أكاد أقبل عليها حتى أنصرف عنها ، وأفزع منها إلى كتاب من هذه الكتب التى تدعونى وتلح فى الدعاء ، فلا أكاد أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين .

لا أريد إذن أن أدرس المتنبى ، فإنى قد فررت بنفسى وأهلى من الدرس والبحث والتحصيل . ولقد صحبت المتنبى طوال العام الجامعى أدرس شعره مع الطلاب وأتحدث عنه إلى جمهور الناس ، حتى سئمت درسه والتحدث عنه .

وكما أكره لابنَيَّ أن يُقبِلا أثناء الصيف على ما كانا يقبلان عليه فى عامهما الدراسى ، فأنا أكره لنفسى أن أمضى فى درس المتنبى بعد أن أنفقت فيه ما أنفقت من الليالى والأيام .

ومع ذلك فقد طلبت إلى صاحبى حين كان يجمع ما ينبغى أن يحمله من الكتب ألا ينسى ديوان المتنبى . ولم أطلب إليه أن يحمل ديواناً آخر من دواوين الشعر القديم أو الحديث ، وإنما طلبت ديوان المتنبى وحده . وأراد صاحبى أن يحمل ما فى مكتبى من الشروح التى كتبها القدماء والمحدثون يفسرون بها هذا الديوان ، وأراد أن يحمل ما فى مكتبى من البحوث التى تناول بها القدماء والمحدثون حياة أبى الطيب وشعره ، فأبيت عليه هذا كله ، وتقدمت إليه فى أن يكتفى بأيسر طبعة من طبعات المتنبى ؛ لأنى لا أريد درساً ولا بحثاً وإنما أريد صحبة ومرافقة ليس غير .

وليس المتنبى مع هذا من أحب الشعراء إلىّ ، وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب أو الإيثار . ولقد أتى علىّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطر لى أنى سأعنى بالمتنبى أو أطيل صحبته ، أو أديم التفكير فيه . ولو أنى

أطعت نفسى وجاريت هواى لاصطحبت شاعراً إسلاميا قديماً عسيراً كالفرزدق أو ذى الرمة أو الطرماح . أو شاعراً عباسيًّا من هؤلاء الذين أحبهم أو أوثرهم ؛ لأنى أجد عندهم لذة العقل والقلب ، أو لذة الأذن ، أو اللذتين جميعاً ، كمسلم ، وأبى نواس ، وأبى تمام ، وأبى العلاء . ولكنى لم أطع نفسى وإنما عصيتها ، ولم أجار هواى وإنما خالفته أشد الخلاف وطلبت إلى صاحبى على كره منى أن يصطحب المتنبى .

وأكبر الظن أنى إنما فعلت ذلك لأن المتنبى كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين ، ولأنى حاولت وما زلت أحاول أن أستكشف السر فى حب المحدثين له ، وإقبالهم عليه ، وإسرافهم فى هذا الحب والإقبال ، كما أسرف القدماء فى العناية به حبًّا وبغضاً وإقبالاً وإعراضاً .

وأكبر الظن أيضاً أنى إنما فعلت ذلك لأنى أحب أن أعاند نفسى وآخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر . وقد قلت فى غير هذا الموضع إنى لست من المحبين للمتنبى ولا المشغوفين بشخصه وفنه ، فلم أجد بأساً فى أن أشق على نفسى أثناء الراحة ، وأثقل عليها حين تبغض الأثقال عليها .

نعم لم أجد بأساً فى أن أقطع عليها لذة الحياة فى فرنسا بين هذه الربى الجميلة ، وفى هذا الجو الحلو ، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التى تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد ، والتى أغرق فيها إلى أُذنى كلما عبرت البحر .

لم أجد بأساً بأن أثقل على نفسى أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبى والتحدث عنه ، والاستماع له ، والنظر فيه ، والناس يعرفون أنى شديد العناد للناس ، فليعرفوا أيضاً أنى شديد العناد لنفسى كذلك .

لا أُريد أن أدرس المتنبى إذن ؛ فالذين يقرءون هذه الفصول لا ينبغى أن يقرءوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ، ولا ينبغى أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد . وإنما هى خواطر مرسلة تثيرها فى نفسى قراءة المتنبى فى قرية من قرى الألپ فى فرنسا .

قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة ، وعلى غير نسق منسجم . إنما هى قراءة متقطعة متفرقة ، أقصد إليها أحياناً لأنى أريدها ، وأقصد إليها أحياناً أخرى لأن نفسى تنازعنى إلى كتاب من كتب الأدب الفرنسى ، فأُعاندها وأمانعها

عند الله كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » .

كان للمتنبى أبٌ وجدٌّ ، ولكن المؤرخين والنسَّابين لا يعرفون من أمر جده قليلاً ولا كثيراً ، ويكادون يختلفون فى اسمه كما رأيت .

أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئاً ، شيئاً يسيراً جداً . كانوا يزعمون أن أبا المتنبى كان سقَّاء فى الكوفة . تحدث المؤرخون بذلك ، وهم بين متحدِّث به يريد أن يرفع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبى الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان أبوه يبيع الماء على الناس ، وكان هو يبيع ماء وجهه على الممدوحين (١) .

وما أظن أن الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا إلى إثبات الحق من حيث هو حق ، وتسجيل التاريخ من حيث هو تاريخ . وإنما قصدوا إلى ما ذكرت لك : إلى الرفع من شأن

(١) وإلى هذا أشار بعض الشعراء حين هجاه بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع فى الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٠ (طبع بولاق)

المتنبي أو الوضع من قدره ، فكأنهم إذن لم يصنعوا شيئاً وكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر أبى المتنبي إلا مثل ما عرفوا من أمر جده ، أى لم يعرفوا شيئا ما .

ولعل المتنبي نفسه قد عرف الكثير من أمر أبيه وجده ، ولكنه كان فيما يظهر غالياً فى الغرور ، مسرفاً فى الكبرياء ، وكان غروره فيما يظهر أكبر من شعره فأفسد عليه الأمر إفساداً .

والتاريخ أو القصص يحدثنا بأن أبا جرير لم يكن شيئاً ، و بأن جريراً قد أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب ، حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو (١) ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ، وأن طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده

(١) حدث صاحب الأغانى قال : قال إسحاق وقال الأصمعى حدثنى بلال بن جرير — أو حدثت عنه — : أن رجلا قال لجرير : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب ؟ فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به ! اخرج يا أبت ؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته فقال : ألا ترى هذا ؟ قال نعم . قال : ألا تعرفه ؟ قال لا . قال هذا أبى ، أفتدرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قلت لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم فغلبهم جميعاً (أغاني ج ٧ ص ٥٨ طبع بولاق)

كان يعلن الى الناس انه لا يشرف بقومه وانما يشرف قومه به ، وانه يفخر بنفسه لا بأجداده

شعره ، وأعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً .

أما المتنبي فلم يستطع شعره أن يغلب غروره ، ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقا جديدا . ومن يدرى ؟ لعل مصدر ذلك أن جريرا كان يعرف أباه فصوّره كما أراد لا كما كان . وأن المتنبي لم يكن يعرف أباه فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان .

و بعد فليس يضع من قدر المتنبي عندى ألا يعرف لنفسه أباً . وليس يرفع من شأنه أن يكون أبوه من المجد ونباهة الذكر بحيث كان غالب بن صعصعة أبو الفرزدق وشيخ تميم .

وأنا أقبل من المتنبي فى إعجاب لا حدّ له هذه الأبيات التى هى من أروع ما قال من الشعر :

أنا ابنُ مَن بعضُـهُ يفُوقُ أبا الـ
ـباحِثِ والنَجْلُ بعضُ مَن نَجَلَهْ
وإنَّمَا يذكرُ الجُـدُودَ لَهُم
مَن نفرُوهُ وأنفدُوا حِيَـلَه
فَخراً لِعضْبٍ أرُوحُ مُشْـتَمِلَهْ
وسَـمْهرِيٍّ أرُوحُ مُعْتقِـلَه

وَلْيَفْخَرِ الفخرُ إذ غدَوْتُ بهِ
مُرْتَدِياً خَيْرَهُ ومُنتَعِلَهْ

أنَا الّذى بَيَّنَ الإلٰهُ به الْـ
ـأقدارَ والمرْءُ حَيثُما جَعَلَهْ

جَوْهَرَةٌ تَفرَحُ الشّرافُ بها
وغُصَّةٌ لا تُسِيغُها السَفِلَهْ

إن الكِذابَ الّذى أكادُ بهِ
أهوَنُ عِندى من الذى نقلَهْ

فلا مُبَالٍ ولا مُدَاجٍ ولا
وَانٍ وَلاَ عاجِزٌ ولا تُكَلَهْ

ودَارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقًى
فى المُلتقَى والعجاجِ والعَجَلَهْ

وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بقافيةٍ
يحارُ فيها المُنَقِّحُ القُوَلَهْ

ورُبَّمَا أُشْهِدُ الطعامَ مَعِى
مَنْ لا يُساوِى الخُبْزَ الذى أكَلَهْ

ليس فى ذلك عندى من شك فقد اتهم الرجل فى نسبه ، وسئل عن أَبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد أن يجيب سائليه ، وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس وأن يزدرى الكائدين له والمرجفين به والمؤلبين عليه . ومع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير لأن هذا الإسراف فى الفخر والغلو فى التيه والإغراق فى ازدراء العائبين دليل فى حقيقة الأمر على العجز والنكول .

أقول مع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه ، فهى فى الوقت نفسه تصور فتوَّة المتنبى وحسنَ رأيه فى نفسه ، وقوة إيمانه بهذه النفس ، وصدق معرفته للناس ، وشدة ازدرائه لهم ، واستهزائه بهم . لأنه قد علم من حقائقهم ودخائل أُمورهم ما دفعه دفعا إلى هذا الازدراء والاستهزاء .

———

أمه وجدته

٣

وهل كان المتنبى يعرف أمه ؟ مسألة فيها نظر كما يقول الأزهريون . فديوان المتنبى صامت بالقياس إلى أمه صمته بالقياس إلى أبيه . فالصبي الشاب ، والرجل المكتهل ، والمتنبى راضياً وساخطاً ، ومسروراً ومحزوناً ، لا يذكر أمه ، كما أنه لا يذكر أباه . ولكن الخطب فى أمّ المتنبى أعظم من الخطب فى أبيه . فقد سكت المتنبى نفسه عن أبيه ، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه فسموه الحسين ، وعرفوا له أباً اختلفوا فى اسمه بعض الاختلاف ، وعرفوا له صناعة هى السقاية فى الكوفة ، وهذا على قلته وضآلته كثير بالقياس إلى ما عرفوا عن أم المتنبى . لأنهم لم يعرفوا من أمرها شيئاً ، ولم يذكروا من أمرها شيئاً .

فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أباها ، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية . وكل ما نعرفه أن أمها قد عطفت على المتنبى ، وأحبته وكلفت به ، وعمرت حتى رأته رجلا . وهذه السيدة التى قتلها حب حفيدها فيما يقال وكما سنرى

لا نعرف لها اسماً ولا أبا ، وإنما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولون : إنها هَمْدانية صحيحة النسب ، وإنها كانت من صوالح نساء الكوفة . وهذا ما يعرفه عنها التاريخ . وهو كذلك كل ما يعرفه عنها ديوان المتنبي — أستغفر الله — فديوان المتنبي لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذى أملاه الغرور وصاغته الكبرياء ، ووصفه جموح الشاعر فى غير موضعه من الرثاء ، وهو قوله :

ولو لم تَكُونِى بِنتَ أَكرَمِ والدٍ

لكانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كونُكِ لى أُمَّا

فأقل ما فى هذا البيت أن المتنبى يذكر لنا أن جدته قد كانت بنت أكرم والد ، ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدها . ولكن المتنبى لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الوالد الذى كان أكرمَ الناس . ومن الانصاف أن نلاحظ أن المتنبى لم يكن يقرر فى أكبر الظن أننا سنتشكك فى نسبه وسنلتمس وجه الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة . ولو أنه قدَّر شيئاً من ذلك لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط . ومن يدرى؟ لعله كان يزدرى شكَّنا ، كما كان يزدرى كيد المعاصرين .

ولعله كان يجيبنا بكل ما أجابهم به حين قال :

أَنا ابنُ مَن بعضُهُ يَفُوقُ أَبا الْـ
ـباحِثِ والنَجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنَّمَا يَذكُرُ الجُـدُودَ لَهُم
من نَفَرُوهُ وأَنفَدُوا حِيَلَهْ

و إذا كان الكائدون للمتنبى من معاصريه قد عجزوا عن أن ينفروه و ينفدوا حيله ، و يضطروه إلى أن يذكر لهم أباءه وجدوده فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين . فليس بين هؤلاء المعاصرين الباحثين و بين المتنبى منافسة ، ولا خصومة ، وليس هؤلاء الباحثون المعاصرون من العلم بأمر المتنبى ودخيلته بحيث كان خصومه ومنافسوه فى القرن الرابع . فليس من شك فى أن الذين عاصروا المتنبى وخاصموه كانوا يعرفون من سيرته ، ومن أمره جملة أكثر جدا مما نعرف ؛ لأننا لا نعرف شيئاً أو لا نكاد نعرف شيئاً . بل إن مضىَّ الزمن بيننا و بين المتنبى قد رفع الرجل عن الخصومات وصفاه من أكدار المنافسة ، ورفع بحثنا عنه ودرسنا له عن الأحقاد والضغائن . فنحن لا نُسَرُّ ، أو أنا على أقل تقدير لا أسر ولا أحزن إن ظهر أن

نسب المتنبى من جهة أبيه أو من جهة أمه ، قد كان صريحاً أو مدخولاً . ونحن نبحث ، أو أنا على أقل تقدير أبحث من أمر المتنبى عن شىء أبقى وأرقى وأقوم من نسبه العربى الصريح أو المدخول : عن أدبه ، وفنه ، ومكانته من الأدباء ، وأصحاب الفن القدماء والمحدثين .

ونحن إذا انتهينا إلى قرارة الأشياء ، لا نكاد نشك فى أن المتنبى قد كان عربيًّا ، ولكن بشرط أن نفهم من لفظ العربى معنى أوسع وأعمق وأصدق مما كان يفهمه النسابون فى العصور الأولى ، ومما يفهمه المقلدون من الأدباء فى العصر الحديث .

فأين العقل العاقل الذى يستطيع أن يصدق ما كان يقال فى العصور الأولى ، وما لا يزال يقال فى كثير من المدارس الأدبيـة من أن العربى الصريح أو العربى الصليبة هو الذى يعرف له نسب صحيح إلى قبيلة من قبائل العرب فى الشمال أو فى الجنوب ؟

أين العقل العاقل الذى يصدق أن جميع سكان جزيرة العرب منذ العصور الجاهلية الأولى إلى هذا العصر الذى نعيش فيه قد حفظوا لأنفسهم أنساباً صريحة صحيحة ترفعهم إلى عدنان

أو إلى قحطان ؟ إنما حفظ الأنساب مزية قد اختصت بها طبقات من أشراف العرب وساداتهم فى بعض الأوقات ، ثم أصبحت سُــنة موروثة وعادة مألوفة ، ومظهراً من مظاهر الأرستقراطية . ثم فرضت على أصحابها أن يحفظوها و يتوارثوها ، و يبتدعوها ابتداعاً إذا غلبهم عليها النسيان .

ومن الحديث المعاد فى غير طائل ، بل من الحديث المعاد فى كثير من السأم والملل ، أن نذكر ما أثير حول الأنساب وصحتها منذ أقدم العصور العربية ، بل من الحديث المعاد الممل أن نذكر ما أثير حول صحة الأنساب عند الأمم القديمة كاليونان والرومان .

ليس من الحق إذن أن العربى لا يكون عربيًّا ، حتى يحفظ لنفسه أو يحفظ الناس له نسباً صحيحاً صريحاً ينتهى به إلى قبيلة من القبائل . ولو كان هذا حقًّا لتغير كثير جدا من القِيم التاريخية والمعاصرة . فأ كثر الذين كانوا يرون أنفسهم عرباً فى العصور القديمة ، لم يكونوا يحفظون أنسابهم فى أ كبر الظن . والتاريخ لم يحفظها عنهم على كل حال . أفنجحد الآن أنهم كانوا عرباً ؛ لأن أنسابهم لم تصل إلينا ؟ وأ كثر المعاصرين من الشعوب

العربية فى الشرق الأدنى ، لا يحفظون أنسابهم ، ولا يستطيعون أن يرقوا بها إلى عدنان أو قحطان ، أفنجحد تَحَدُّرهم من العنصر العربى الصريح ، وما هذا العنصر الصريح ؟ وكيف السبيل إلى تحقيقه ، واستخلاصه من العناصر المختلفة التى لا تحصى ، والتى اتصلت به وأثرت فيه على تتابع الأحداث ومرّ العصور .

ولكن ماذا ! ؟ أرانى أستطرد وأسرف فى الاستطراد ، وأكاد أثير مسألة الأجناس التى يثيرها بعض الساسة المعاصرين ، ويندفعون معها إلى كثير من الحمق ، وإلى كثير من الظلم أيضاً . والأمر أيسر من هذا ، فالتفكير فى نسب المتنبى ، والحديث عنه أهون من أن يدفعنا إلى أن نخوض هذه الغمرات .

كان المتنبى يرى أنه عربى ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأى ، ولعل هذا الرأى كان أبلغ المؤثرات فى حياته العملية ، وهو أبلغ المؤثرات فى حياته الفنية على كل حال . وقد أنبأنا المتنبى برأيه هذا فى نفسه حين قال :

لا بِقَومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى

وبنفسى فَخَرتُ لا بجُدُودى

وبِهِم فخرُ كُلِّ مَن نَطَقَ الضَّا
دَ وعَوْذُ الجانى وغوْثُ الطَّرِيدِ

فهذا البيت الثانى صريح فى أن المتنبى كان يعلن إلى الناس أنه لا يشرف بقومه و إنما يشرف قومه به ، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده ، وإن كان قومه فخر العرب ومجتمع خلالهم وخصالهم .

فما الذى يمنعنا من أن نصدق المتنبى ، ونرى معه أنه كان عربيًّا قحطانيًّا ؟ لا شىء إلا أنه لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ، فأمره فى ذلك أمر الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم . أفنجحد عربيتهم ؛ لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب . وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانية الناس ؛ لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول ، أو إلى الأناس الأولين ؟ إنما أفهم الشك فى عربية المتنبى لو أن المؤرخين رووا أن له نسباً معروفاً أو قريباً من المعروف فى أمة غير عربية ، وأنه قد جحد هذا النسب وتبرأ منه ، واصطنع لنفسه نسباً عربيًّا . ولكنى لم أر أحداً عاب المتنبى بهذا ، أو أضاف إليه نسباً أعجميًّا أو جعله عربيًّا بالولاء . و إذن فلنقبل من المتنبى ، ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب ، فذلك

لا يغير من العلم شيئاً ، وأكبر الظن أنه يلائم الحق .

أفهم أن ينسب ابن الرومى إلى اليونان ؛ لأن جده اليونانى قد حفظ اسمه ، وأن ينسب من قبل أمه إلى الفرس ؛ لأن أمه الفارسية قد كانت معروفة ، وأفهم أن ينسب بشار إلى الفرس لأنه كان يفاخر بذلك ولا يخفيه ، وأفهم أن تثار المناقشات إن زعم زاعم أن بشاراً كان عربيًّا ، بل أفهم أن تثار المناقشات حول طائية أبى تمام ، ثم حول عربيته لأن المعاصرين قد شكُّوا فى نسبه وغمزوه ببعض الهنات . ولكنى لا أفهم الشك فى عربية المتنبى ، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمة أعجمية ، وما دام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك ، وما دام هو ينبئنا بأنه عربى صريح .

ومن حقك أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبى ، وأظهر الشك فى معرفته لأمه ومعرفته لأبيه ، ما دمت لا أميل إلى الجدال فى عنصره العربى الصريح . من حقك أن تلقى علىّ هذا السؤال .

فاعلم يا سيدى أنى لم أُثِرْ هذه المناقشة الطويلة لأعرف أكان المتنبى عربيًّا أم أعجميًّا ، وإنما أثرتها لأنتهى منها إلى

حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهي أن المتنبي لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ؛ ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه . التمس لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعنيني ، وإنما الذي يعنيني ، ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور المتنبي الصبي بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين قد كان العنصر الأول الذي أثر في شخصية المتنبي ، وبغَّض إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه ، وإنما كانت حياة يحيط بها كثير من الغموض ، ويأخذها كثير من الشذوذ .

رأى نفسه شاذًّا لأمر ليس له فيه يد ، وليس له عليه سلطان . ففكر تفكير الشاذ وعاش عيشة الشاذ ، ثم انضمت إلى هذا العنصر عناصر أخرى سيظهرها لنا شعره . فكوَّنت هذه الشخصية التي لم نستطع أن نفهمها ، ولا أن نحللها إلى الآن .

ليكن المتنبي عربيًّا من قحطان أو من عدنان ، أو ليكن فارسيًّا ، أو ليكن نبطيًّا ، أو ليكن ما شئت ، فالأمر الذي لا شك فيه هو أن هـذا الصبي الذي نراه متى أخذنا في قراءة ديوانه ، نبات شعبي خالص ، نشأ في هذا الشعب الكوفي الذي

كان فى أوائل القرن الرابع مضطرباً أشد الاضطراب . فدَرْسُ هذه البيئة الشعبية الكوفية التى أنبتت هذا النبات الشاذ أقومُ وأجدى من البحث عن أبيه ، أكان من جعفىّ ، وعن أمه أكانت من همدان .

وتسألنى — ومن حقك أن تسألنى — عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبى ، وعن مواطن هذا الشذوذ الذى أخذها من كل وجه فى بيئته الكوفية . فلاحِظْ قبل كل شىء غموض الأمر فى نسبه ، ولاحظ بعد ذلك خلو ديوانه من ذكر أمه وأبيه ، أو الإشارة إليهما ، ولاحظ بعد هذا وذاك هذا الكِذَابَ الذى كان يكاد به عند أبى العشائر ، ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه ، ووجد الشوق إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء لم يستطع أن يدخل الكوفة ، فذهب إلى بغداد وكتب إلى جدته لتشخص إليه . فلما انتهى إليها كتابه فرحت به فقتلها الفرح .

أليس هذا كله دليلاً على أن شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبى .

لماذا احتاج المؤرخون إلى أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا

أو لم يريدوا أن يتحدثوا عن أمه ، ولم يتحدث هو عن هذه وذاك ؟

لماذا كاد الكائدون للمتنبي فى نسبه ؟ لماذا تعمد الغربة عن الكوفة وألحّ فيها ، وتجنب الحياة فى العراق ما وسعه هذا التجنب ؟ لماذا عجز عن دخول الكوفة حين خفّ للقاء جدته ، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدته أن تشخص إليه ؟

كل هذه حقائق واقعة لا نستطيع أن نشك فيها ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً . والمتنبي يحقق لنا هذه الأحداث فى هذه القصيدة الخالدة التى يرثى بها جدته ، فاقرأ معى هذه الأبيات ، ولكن قراءة المستأنى المتمهل الذى لا يمر بالشعر مرًّا ، والذى لا يشغله الجمال الفنى عن التماس نفس الشاعر ، وما يكن فى ضميره من العواطف المكظومة ، والأهواء المكتومة ، والخواطر التى لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح :

طَلَبتُ لهـا حَظًّا ففاتَتْ وفاتَنى
وقد رَضِيَتْ بِى لو رَضِيتُ بهـا قِسْما

فأَصبَحتُ أستَسقى الغَمامَ لِقَبـرِها
وقد كُنتُ أستَسقى الوَغَى والقَنا الصُمّا

وكنتُ قُبَيْـلَ الموتِ أستعظمُ النَّوَى
فقد صارَتِ الصُغرَى الَّتى كانتِ العُظمَى
هَبينى أَخَذتُ الثارَ فيك مِنَ العِـدَى
فَـكيفَ بأَخذِ الثار فيكِ من الحُـمَّى
وما انسدَّت الدُنيـا عَلَىَّ لضيقِها
ولـكِنَّ طَـرْفاً لا أراكِ بهِ أعْمَى
فوا أسَـفا ألاّ أُكِبَّ مُقَبِّـلاً
لِرأسِكِ والصَّـدْرِ اللَّذَى مُلِئَا حَزْما
وألاّ أُلاقِى رُوحَكِ الطيِّبَ الَّذِى
كأنَّ ذَكِىَّ المِسكِ كانَ لهُ جِسما
ولو لم تَـكُونى بِنتَ أكرَمِ والدٍ
لَـكانَ أباكِ الضَخمَ كونُكِ لى أُمّا
لَـئِنْ لَذَّ يَومُ الشَـامِتين بمَوْتِها
لقَـدْ وَلَدَتْ مِنى لِأَنْفِهِمِ رَغْمـا
تغَرَّبَ لا مُسْـتَعظِماً غَيْرَ نَفسِـهِ
ولا قابِلاً إلاّ لِخالقِـهِ حُكما

ولا سـالِكاً إلاَّ فُؤادَ عَجاجةٍ
ولا واجِـداً إلاَّ لِمكرُمةٍ طَعْما

يَقولونَ لى ما أنتَ فى كُلِّ بَلدةٍ
وما تَبتَغى ؟ ما أَبْتَغِى جَلَّ أَنْ يُسْمَى

كأَنَّ بَنِيهم عالِمُونَ بأَنَّنى
جَلُوبٌ إليهِم من مَعادِنِهِ اليُتْما

وما الجمعُ بينَ الماءِ والنارِ فى يَدِى
بأَصعبَ من أَنْ أَجمعَ الجَدَّ والفَهْما

ولكِنَّنى مُسْتَنْصِرٌ بذُبابِهِ
ومُرْتَكِبٌ فى كُلِّ حالٍ بهِ الغَشْما

وجاعِلُهُ يومَ اللقاءِ تَحِيَّتى
وإلاَّ فلستُ السَيِّدَ البطَلَ القَرْما

إذا فَلَّ عَزْمى عن مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ
فأبعَدُ شيءٍ مُمْكِنٌ لم يجدِ عزْما

وإنّى لَمِنْ قَوْمٍ كأنَّ نفوسَهم
بها أَنَفٌ أنْ تَسْكُنَ اللَحْمَ والعَظْما

كَذا أنا يا دُنيـــا إذا شِئت فاذهبى
ويا نَفْسِ زيدى فى كَرائِهِا قُدْما
فَلا عَبَرَتْ بى ســـاعةٌ لا تُعِزُّنى
ولا صَحِبتنى مُهجةٌ تَقبَـــلُ الظُّلْمَا

فهو قد طلب لجدته حظا لم يدركه ، لأنهـا أسرعت إلى الموت ، ولأن هذا الحظ أبطأ على طالبه . وهو يسأل كيف يستطيع أن يثأر لها من الحمى التى قضت عليها . على فرض أنه استطاع أن يثأر لها من الأعداء الذين أساءوا إليها .

فمن حقنا أن نسأل عن هؤلاء الأعداء من هم ، ومن عسى أن يكونوا ؟ ومن حقنا أن نسأل عن هذه المساءة ما هى وما عسى أن تكون ؟ من حقنا أن نسأل ، ولـكن المتنبى لم يقدر هذا السؤال فلم يجب ، أو قدَّره ولم يرد أن يجيب عليه لأنه آثر التلميح على التصريح ، ولأنه رأى ، ومن حقه أن يرى ، أن هذه أمور لا ينبغى أن تعنينا ، أو إنما هى تعنيه وحده ، وحسبه أَن يعرف بعضها ناس من المعاصرين قليلون أَو كثيرون .

هذا يدل من غير شك على أن سرًّا من الأسرار كان يكتنف حياة أبى الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقة

الصلة التى كانت بينه و بين هذه الجدة الصالحة ، والتى كانت بين الحسين السقاء و بين هذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتى اقتضت أن تهمل أمَّ المتنبى إهمالاً تامًّا .

والمتنبى لا يكتفى بهذا التلميح الموجز ، و إنما يطيل فيه إطالة مقصودة تصور ما يملأ نفسه من الضغينة والحقد ، وما يفعم قلبه من الموجدة والبغض ، ولكنه على هذه الإطالة لا يفصل هذا التلميح ولا يكشف عما يدل عليه من غموض .

فهو يحدثنا بأن قوماً قد يُسَرُّون بموت جدته ، و يشمتون به وبها ، ولكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت وأعجزها الموت عن أن تكبتهم وترد كيدهم فى نحورهم ، فقد ولدته رغماً لأنوفهم ، وكبتاً لما فى صدورهم من الحقد والشنآن . ثم هو يصف لنا نفسه كما تعوّد أن يصفها شديدة البأس ، قوية المراس ، أبية الضيم ، ممتنعة على الذل . ولكننا نقف من هذا الوصف المألوف فى شعر المتنبى عند هذا البيت الذى لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفكير .

تغرَّبَ لا مُستَعظِماً غيرَ نفسهِ
ولا قابِلاً إلاّ لِخَالِقِهِ حُكْما

فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حبًّا فى الغربة ، ولكن إيثاراً لها ولمشقاتها وأخطارها على العافية فى الكوفة . وهو لأمر ما قد آثر هذه الغربة ، وتعرض لما قد تنكشف عنه من الأخطار والأهوال .

ولعلنا نغلو حين نقول لأمر ما ، فهو يبين لنا هذا الأمر أو هذه الأمور فى هذا البيت نفسه وفى الأبيات التى تليه . فهو تغرب لأنه لم يكن يستعظم إلا نفسه ، وهو تغرّب لأنه لم يكن يقبل حكما إلا لخالقه . وما معنى هذا ؟ معناه فى أكبر الظن أنه تغرب منكراً للحياة فى الكوفة . وماذا عسى كان ينكر من الحياة فى الكوفة ؟ إنما هما أمران اثنان كانا خليقين أن ينكرهما المتنبى : أحدهما يتصل بالحياة الاجتماعية ، والآخر يتصل بالحياة السياسية . وليس من شك عندى — ولك أنت أن تشك — فى أن المتنبى لما تقدمت به السن قليلا قد عرف من أمر نفسه ، ومن أمر أسرته ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه فى الكوفة فآثر الرحيل .

فهذا هو الأمر الاجتماعى الذى يتصل بشخص المتنبى وأسرته ، ومكانه ومكان هذه الأسرة فى طبقته الاجتماعية .

فأما الأمر الآخر الذى يتصل بالحياة السياسية ، فأبيات المتنبى التى رويناها آنفاً ، تدل عليه أيضاً دلالة واضحة ، وسنتبينه بعد قليل فى شىء من الجلاء لا يحتمل اللبس . وهو عندى أثر من آثار الأمر الأول . فقد كان المتنبى ثائراً على نظام الحكم المستقر فى الكوفة ، ضيقاً به ، راغباً فى تغييره أو جادًّا فى هذا التغيير . ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعنى بأن طفولة المتنبى لم تكن طفولة عادية مألوفة ، و بأن صبى المتنبى لم يكن صبيًّا عادياً مألوفاً ، و بأن الكِذاب الذى كان يكاد به عند أبى العشائر ، و يراه أهون عنده من ناقله لم يكن كذاباً كلّه ، و إنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظاً وحفيظة ويذوده عن الكوفة بل يبغض إليه الحياة فى العراق ويحمله على أن ينفق عمره غريباً مُجَوِّلا فى الآفاق .

هذا كلّه يكفينى لأقتنع بأن مولد المتنبى كان شاذا ، و بأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها ، ولم يستطع أن يلائم بين نفسه الشاذة و بين البيئة الكوفية التى كان يراد له أن يعيش فيها . فما هذه البيئة ؟

البيئة التى ولد فيها المتنبى :

٤

وهل تريدنى على أن أعيد عليك ما امتلأت به الكتب والصحف من تصوير الحياة العراقية خاصة ؛ والإسلامية عامة آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع . أظنك أرفق بنفسك وبى من أن تنتظر منى هذا الحديث المعاد ، ولكن لا بأس بأن نتذكر إن كنا قد نسينا أن هذه الحياةَ العراقية خاصة والإسلامية عامة كانت تنحل إلى ثلاثة أشياء ، كلٌّ منها خليق بالتفكير الطويل العميق ؛ لأن لكل منها أثراً بالغاً فى أحداث ذلك العصر على اختلافها :

الأمر الأول فساد السياسة ، والأمر الثانى الاقتصاد ، والأمر الثالث رقىُّ العقل . وما أظن أنك محتاج إلى أن أذكر لك فساد أمر الخلافة فى ذلك العصر ، فكل كتب التاريخ وكل كتب الأدب تصوِّر لك ما كان من انهيار سلطان الخلفاء وانحلال أمرهم ، وخضوعهم المطلق لعبث الجند ، وقادة الجند ، ولسلطان الخدم والنساء . وما نشأ عن ذلك كله من

عجز السلطان المركزى فى بغـداد عن أن يجمع أطراف الدولة ويحزم أمرها ، كما كان يفعل حين كان الخلفاء خلفاء ، وحين كانت الخلافة خلافة ، وحين لم يكن أمير المؤمنين لعبة فى يد خادم أو أَمَةٍ . ثم ما نشأ عن هذا كله من استقلال الأطراف ، وطموح الولاة إلى الملك ، وظهور القوميات الوطنية فى الشرق والغرب ، ونشوء عهد يشبه عهد الإقطاع فى أوربا أثناء القرون الوسطى .

أنت تعرف هذا كله ، ولست أحدثك بجديد إن أعدته عليك ، وهو من غير شك يصور لك فساد السياسة الإسلامية فى ذلك العصر . وفسادُ هذه السياسة الإسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الإسلامى . فما دام السلطان المركزى مضطرباً عاجزاً ، كثير التقلب ، فشؤون المال فى الدولة مضطربة مختلطة كثيرة الارتباك . وإذن فجباية الضرائب ، وتحصيل الدخل ، وملء الخزانة ، كل ذلك مضطرب أيضاً . وإذن فدافعو الضرائب على اختلافهم وتباين طبقاتهم ، معرضون لألوان من الظلم لا يمكن إحصاؤها . وإذن فالتعاون بينهم وبين السلطان منعدم ، وسوء الظن قائم مقام هذا التعاون :

السلطان محتاج إلى المال دائماً ، وهو معتقد أن الرعية قادرة دائماً على أن ترضى حاجته إلى هذا المال ، والرعية سيئة الرأى فى السلطان ، ترى ظلمه و بطشه ، وعجزه وعبثه بما تدفع إليه من مال ، فلا تطيب له نفسها عن شىء . فهى تظهر الفقر ، وتعلن الشكوى ، وتضمر البغض للحكومة ، وتجدّ فى أن تخفى عليها ما تملك . فالعداء مستحكم بين الراعى والرعية . كل يرى نفسه لصاحبه خصماً ، وكل ينتهز لصاحبه الفرصة و يتربص بصاحبه الدوائر . وعجزُ السلطان واضطرابه ، وعبث الجند والخدم ، يدفعه إلى شىء آخر غير ظلم الرعية ؛ يدفعه إلى ظلم أعوانه أنفسهم . فهو يأجر الجند إن استطاع ، فإذا أعياه ذلك لم يؤدِّ إلى الجند أُجورهم ، و إذن فسوء الظن قائم بينه و بين الجند ؛ يرى هو أنهم نهمون لا يشبعون ، و يرون هم أنه مستأثر دونهم بالمال ، يستغلهم ولا يؤدى إليهم أجراً . فسياسة السلطان للجند وطاعة الجند للسلطان يقومان على المكر والخداع ، أكثر مما يقومان على الصراحة والإخلاص . والأمر ليس مقصوراً على الجند وقادتهم ، ولكنه يتجاوز أُولئك وهؤلاء إلى أصحاب المناصب المدنية

على اختلافها . فهم أيضاً لا يتقاضون أُجورهم فى نظام ، وهم أيضاً مدفوعون إلى أن يسيئوا الظن بالسلطان ، والسلطان مدفوع إلى أن يسىء بهم الظن ، وهم مدفوعون إلى شر من هذا ، مدفوعون إلى أن يأجروا أنفسهم على حساب الرعية ، يظلمون ويغصبون ، يسرقون ويرتشون . والرعية ترى هذا وتتقيه ما استطاعت — وقلما تستطيع — فهى تنكر السلطان وجند السلطان ، وأعوان السلطان . وهى أيضا تريد أن تعيش وأن تعيش فى لين إن وجدت إلى ذلك سبيلا . والسلطان يضرب لها المثل وينصب لها القدوة . فما لها لا تظلم كما يظلم السلطان ، وما لها لا تغصب كما يغصب السلطان . وإذن فقوام الأمر كله الظلم والغصب ، وإفلات المرء بما يستطيع أن يفلت به من نعيم الحياة ولذاتها .

ومن هنا يوجد الأغنياء الذين لا تحصى ثروتهم ، والفقراء الذين لا يتصوّر فقرهم ، والمضطربون بين الغنى والفقر الذين يواتيهم الحظ ؛ فيبلغون أَقصى النعيم . ثم تخلفهم الأمانى وعودها ، فيهبطون إلى قرارة البؤس .

وما أظنك فى حاجة إلى أن أؤكد لك أن هذه الصور

التى عرضتها عليك ليست صوراً قد اخترعها الخيال من عند نفسه ، وألفها تأليفاً ، مُؤْثِراً فى هذا التأليف الغلو والإغراق . إنما هى صور متواضعة ، أقل ما توصف به أنها أيسر وأهون ، وأقل بشاعة وسماجة مما نقرؤه فى كتب التاريخ الذى يعرض علينا فساد السياسة والاقتصاد مفصلا أقبح تفصيل وأشنعه . يعرضه علينا مكتوباً بالدم لا بالمداد .

أما رقىُّ العقل فى هذا العصر فليس أقل ظهوراً وجلاء من فساد السياسة والاقتصاد . فهو العصر الذى نضجت فيه الحضارة الإسلامية ، وأدركت رشدها ، واستكملت قوتها ، وأخذت تؤتى ثمرها طيباً لذيذاً فى كل فرع من فروع العلم ، والفلسفة والأدب والفن .

وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة . فيه التقت أكثر الأجناس التى تتألف منها الدولة الإسلامية ، أو على أقل تقدير أكثر هذه الأجناس استعداداً للحضارة ، وأحسنها بلاء فيها ، وأعظمها حظا من الإنتاج قديماً وحديثاً . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين . وفيه كان الفرس ومعهم

حضارتهم الساسانية المعقدة التى تمتاز بالترف المادى والعقلى معاً ، وفيه كانت أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود ، وتمثلوا تراث اليونان ، وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة ، ينقلون إليها تراث الأولين من أهل الشرق والغرب ، ويعينونها على أن تسيغه وتتمثله . ولن يخلو العراق من يونانيين انحدروا إليه وأقاموا فيه طائعين ، للاقتصاد والتماس المنفعة ، وكارهين بحكم الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين و بحكم الرق أيضاً .

ولن يخلو العراق من الهنود الذين كانوا يفدون طوعا أو كرهاً كاليونان . ثم لم يخل العراق ممن كانوا يمثلون الأقاليم والأطراف الغربية للدولة ، كانوا يفدون للتجارة ، وكانوا يفدون للسياسة ، وكانوا يفدون لطلب العلم أيضاً ، وكل هذه الأجناس كانت تلتقى متعارفة لا متنا كرة ، ومؤتلفة لا مختلفة ، ومتعاونة لا متقاطعة ، قد زالت بينها الفروق ، وألغيت بينها الحجب ، وصبغتها الحضارة الجديدة صبغة واحدة ، وجعلت لها لغة واحدة هى اللغة العربية ، بها تتحدث ، وبها تكتب ، وفيها تدون ، وعن هذا كلّه نشأت الظاهرة التى تعنينا الآن ، وهى أن رقى العقل فى هذا

العصر قد انتهى إلى مالم ينته إليه قط فى العصور الإسلامية السابقة . فأحدث آثاراً غريبة أقل ما توصف به أنها كانت متناقضة أشد التناقض :

اختلطت الثقافات المختلفة وانتشرت فى الطبقات كلها ، فى الطبقات القوية ، وفى الطبقات الوسطى ، وفى الطبقات الضعيفة الخاملة ؛ ونشأ عن انتشار الثقافة وتغلغل العلم فى جميع الطبقات أن كل متعلم مثقف طمح إلى حال خير من حاله التى هو فيها ، وفتحت الثقافة المثقفين أبواب الحيل ، ومدت لهم أسباب النجح ، ومهدت لهم سبل الفوز . فأما الأغنياء وأصحاب الصولة فقد طمعوا وجهدوا فى أن يتزيدوا من الغنى والصولة ، وظفروا من ذلك بالشىء الكثير .

وأما أوساط الناس فقد طمعوا فى السيادة ، وسموا إلى المكانات العليا ، و بلغوا منها كثيراً مما أرادوا . وأما الطبقات الضعيفة الخاملة فقد طمعت فى أن ترقى درجة أو درجات ، وظفرت من ذلك بكثير مما أرادت أيضاً . ولكن الطمع الإنسانى لا حد له ، والطموح إلى الكمال لا يقف ، والأمور الاجتماعية لا تضطرد على هذا النمو السهل الذى يتصوره

العقل ، فكل طمع فى أى طبقة من الطبقات يصده طمع مثله ، وكل طموح يقاومه طموح مثله ، وكل ظفر ينتهى إليه فرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات ، انما هو انتصار على فرد آخر ، أو ظهور على طبقة أخرى ، فهو إن أرضى قوما يسخط آخرين ، والحياة الإنسانية لذلك دائما حرب متصلة ، وصراع مستمر ، وطموح لا ينقضى ، وآمال لا تحد وجشع لا يرضى ؛ فإذا أتيح لهذه الحياة سلاح من العقل الراقى ، والثقافة الواسعة ، والعلم الذى يفتق الحيلة ويرهف الحس ، ويذكى نار الشعور ، ويشحذ العزم ، لم يكن بدّ من أن ينتهى الأمر إلى الثورة و إلى الاضطراب ، و إلى مثل ما نشهده فى ذلك العصر من فساد السياسة ، والاقتصاد والخلق والشعور الدينى أيضاً . وإذا كنا قد لاحظنا ما لاحظناه من فساد السياسة الإسلامية فى ذلك الوقت وغليانها كما يغلى المرجل ، ثم انفجارها آخر الأمر وانتهاءها إلى ما انتهت إليه من الكوارث والأحداث .

فالثورة البابكية أو الخرّمية فى أول القرن الثالث ، وثورة الزنج أواسط هذا القرن وثورة القرامطة فى آخره ،

وفى أثناء القرن الرابع لم تكن إلا نتائج طبيعية لتفاعل هذه العناصر التى أشرنا إليها فى كثير من الإيجاز .

ولعل أخص ما تمتاز به هذه الثورات الثلاث أنها كلها كانت تقصد إلى تغيير الحياة الاقتصادية ، بحيث يغير توزيع الثروة بين الناس ، و يتحقق شىء من العـدل والمساواة بين الأفراد والجماعات ، وأنها كلها كانت تقصـد كذلك إلى تقوية الشخصية الفردية ، وتحريرها من القيود والأغـلال التى فرضها عليها النظام الدينى والسياسى والاجتماعى ، فقد كان الأفراد كما هم دائما يحتالون فى أن يتحللوا من هـذه القيود بين الحين والحين ؛ فكانوا يحاولون اللهو والعبث ، واستباحة ما لم يكن مباحا ، يجهرون بذلك إن أتيحت لهم الفرص ، و يُسِرُّون ذلك إن حيل بينهم و بين الإعـلان ، فإذا هذه الثورات تطالب لهم بالحق فى أن يجهروا من ذلك بما أحبوا ، وفى أن يأخذوا من ذلك ما أرادوا ، تعلن ذلك فى غير تحفظ حيناً ، وتعلن ذلك مع التحفظ والاحتياط حيناً آخر ، وهى على كل حال تتملق أهواء العامة وشهواتهم وحاجاتهم إلى استباحة مالا يباح ، والاستمتاع بما لا يحل الاستمتاع به .

والثقافة تهون عليهم إثم ذلك من جهة ، وتفتق لهم الحيلة فى ذلك من جهة أخرى ، والغرائز المظلومة تستجيب لهذه الدعوات الجريئة الملحة المغرية ، والأمر يختلط بين الخاصة والعامة ، و بين العالم والجاهل ، و بين المقدم عن فهم ورأى ، والمقدم عن انتهاز للفرصة واستمتاع بالساعة التى هو فيها ، حتى فسد الأمر واختلط ، وحتى طغى السيل وكاد يكتسح كل شىء ، وقد قاومه المعتضد ، وأقام الجسور التى حصرته حيناً ، ولكن المعتضد لم يكد يموت حتى انهارت هذه الجسور ، واندفع السيل أمامه لا يلوى على شىء ، وعجزت الدولة الإسلامية عن مقاومة هذا الطوفان الخطر ، الذى أثاره ما كان من التفاعل بين هذه العناصر التى صورناها منذ حين .

فى هذا العصر الذى نحن بإزائه عظمت الشخصية الفردية حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط فى التاريخ الإسلامى ، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئاً يذكر ، ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة وتحكمت فى الأفراد وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم ، وامحى الإيثار أو كاد

يمّحى ، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التى تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة ، ولم يكن غريباً أن يمكر الصديق بصديقه ، ويغدر الخليل بخليله ، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغى الأخ على أخيه ، ولم يكن من الغريب أن تستباح الدماء التى عصمها الله ، وتنتهك الحرمات التى أمر الله أن ترعى .

ويجب أن نلاحظ أن كل هـذه الظواهر التى كانت حقائق واقعـة فى ذلك العصر لم تكن تتخذ طرقها ميسرة ممهدة مستقيمة . وإنما كانت تلتوى وتعوج وتدور حول الصعاب والمشكلات إذا لم تستطع أن تقتحمها ، وليس من شك فى أن كثيراً من التضليل والتغرير قد سلط على جماعات بريئة مطمئنة غافلة . فلبس لها الحق بالباطل ، وزين لها الشر حتى رأته خيراً ، ودفعها بألوان الإغراء العنيف حتى اندفعت أمامها فى هذه الصحراء تلتمس الرى من هذا الماء الذى كانت تراه رأى العين وتركض إليه ؛ حتى إذا بلغته لم تجده شيئاً ووجدت عنده الخيبة والبؤس والشقاء .

فهذه الجماعات الضخمة التى ثارت مع بابك الخرّمى أَو مع صاحب الزنج ، أو مع دعاة القرامطة لم تكن كلها مقدمة عن

علم بما تقدم عليه ، وإنما ثارت تلتمس العدل الاجتماعى الذى تتطلبه النفس الإنسانية دائماً وتتطلبه ملحة شاكية كلما عظم حظها من البؤس والشقاء ، وقد عرف قادتها وسادتها كيف يلبسون عليها الأمر ويزينون لها الشر ، وعرف الحكام وأعوان الحكام كيف يبغضون إليها النظام القائم ويزهدونها فيه ، ويدفعونها إلى الثورة به والخروج عليه .

فى هذا العصر الذى نحن بأزائه ، وفى هذا الاضطراب المتصل والفساد الشائع ، كثر المغامرون والمخاطرون وأصحاب المطامع التى لا تحد . وظفر بعض هؤلاء المغامرين بما كان يريده كله أو بعضه ، ظفراً يطول حيناً ويقصر حيناً ، ولكنه ظفر على كل حال من شأنه أن يغرى بالمغامرة ويدفع إلى المخاطرة ، ويزيد أثرة الأفراد ، ويضيف فى حياة الجماعات فساداً إلى فساد .

فى هذه البيئة المنكرة التى لم نبالغ ولم نغل فى تصويرها ولد المتنبى . وأكبر الظن أن مولده كان أثراً من آثار هذا الفساد العظيم ، أو أنه لم يخل من تأثر به على كل حال . ولد المتنبى فى بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين .

ولد المتنبي في بيئة

كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر / ولم يكن الدم وحده يصبغها ، وإنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكراً من سفك الدم ، هو النهب والسلب واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخلق والدين .

أضف إلى هذا الشر كله شرا آخر سياسيا جنسيا إن صح هذا التعبير ، وهو أن الأمة العربية التى أقامت هذا الملك الضخم ، وشيدت هذه الحضارة المزدهرة قد غلبت على أمرها وطردت من مستقر سلطانها ، فانحاز إلى الشام والجزيرة منها من انحاز ، وخضع للذل منها من أقام فى العراق ، ودفع إلى الجهالة والبداوة منها من انحاز إلى جزيرة العرب وأقام فيها .

وتسلط الغلمان والرقيق والمغامرون من الخدم وأشباه الخدم على الملوك والأمراء والخلفاء يعبثون باسمهم و يبطشون بسلطانهم ، و يظلمون دون أن يردعهم رادع أو يزعهم وازع أو يصدهم عن ذلك صاد ، فعامة الناس طامعون فى العدل العام ، وهم مع ذلك ينكر بعضهم بعضاً ، و يمكر بعضهم ببعض ويعتدى بعضهم على بعض . وخاصة الناس متنافسون متدابرون

لا يعرفون لما بينهم من التنافس والتدابر حدا ، ولا يعرفون لما يثيره التنافس والتدابر فى نفوسهم من الآمال والأهواء ، ومن المطامع والمآرب غاية ينتهون إليها .

ملك عظيم ينقض ، وسلطان هائل ينهار ، وقوم يتهالكون على فتات ذلك الملك وأنقاض هذا السلطان .

فإذا ولد فى هذه البيئة صبى ذكى القلب مرهف الحس ، رقيق المزاج ، حاد الشعور ، ملتهب العاطفة ، قوى الخيال ، كان من الطبيعى أن يسير السيرة التى تكون منه هذا الشخص الذى يعرف بالمتنبى .

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن نصحب هذا المتنبى فى طريقه القصيرة التى سلكها منذ ولد سنة ثلاث وثلاثمائة إلى أن مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . وقد نجد غموضاً والتواء فى هذه الطريق ، ولكنها على كل حال أيسر من كثير من الطرق التى سلكها غيره من الشعراء ، لأنه هو يسرها لنا فأحسن تيسيرها .

٥

وطفولة المتنبى مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه. وليس فى ذلك شىء من الغرابة ، مادمنا نجهل من أمر أسرته الخاصة كل شىء ، أو نكاد نجهل من أمرها كل شىء ، وما دمنا لا نعرف شيئا عن أمه ، ولا نكاد نعرف أو لا نعرف شيئا عن أبيه . فطبيعى ألا نعرف عن طفولته شيئا ما .

والذى نعرفه عن صِبَى المتنبى ينقسم قسمين :

أحدهما ينبئنا به الرواة ، وأنا أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ، ولكنى لا أهمله ولا ألغيه .

والثانى ينبئنا به المتنبى نفسه ، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر الصبى . وأنا أطمئن إليه اطمئنانا ما ، وآخذه أخذ الناقد الذى لا يصدق كل ما يلقى إليه فى غير تفكير .

فأما الرواة فيحدثوننا أن المتنبى دفع إلى مدرسة من مدارس العَلَويين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين [١] . فبدأ

(١) خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٨٢ (طبع القاهرة) .

فى هذه المدرسة أو فى هذا المكتب تعليمه ، ولا يزيد الرواة على هـذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه . ولـكن المتأخرين والمحدثين منهم خاصة يذهبون فى فهم هذا الخبر مذهبا أقل ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة . فهم يظنون أن هـذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة ، وهم بعـد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان فى تفسير اختلاف الصبى إلى هذه المدرسة العَلوية الأرستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة .

أما أنا فلست أدرى أكانت المدرسة العَلوية هذه ممتازة أرستقراطية حقًّا ، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس ، ولـكنها تعلم على مذهب الشيعة العَلويين . فكان العلويون يؤثرون أن يرسلوا إليها أبناءهم ؟ فلفظ العَلويين فى هذا الخبر عندى يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة ، وواضح جدًّا أن المدارس فى مدينة كمدينة الـكوفة كانت تختلف باختلاف السكان لهذه المدينة . فللشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم ، وللسنيين منهم مدارسهم أيضاً . وجائز أن تسمى مدارس الشيعة مدارس عَلَوية ، كما تسمى مدارس أهل السنة مدارس عباسية .

وأكبر الظن عنـدى أيضاً أن الأرستقراطيين الممتازين

AUC - LIBRARY

من الشيعة العلوية ومن أهل السنة ، لم يكونوا يرسلون أبناءهم فى طور الصبا إلى المدارس العامة . و إنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين . فإذا شبوا خَلَّوْا بينهم و بين الاختلاف إلى مجالس العلم فى الأندية والمساجد الجامعة . إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هـذه المكاتب والمدارس .

للشيعة العلويين مكاتبهم ومدارسهم ، ولأهل السنة مكاتبهم ومدارسهم أيضاً . فاختلاف المتنبى إلى هذه المدرسة العلوية لا يدل عندى على امتياز ولا على استثناء . و إنما يدل على الاتجاه الدينى الذى وجه إليه الصبى . ويدل على أن الذين كانوا يكفلون هـذا الصبى و يقومون على تربيته وتنشيئه كانوا من الشيعة العلويين .

ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبى فى هـذه المدرسة التى اختلف إليها أيام صباه . فالراجح بل المحقق أنه تعلم فيها الكتابة والقراءة ، وقرأ فيها القرآن كله أو بعضه ، وتلقى فيها أصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين . وسمع فيها الشعر ، وروى منه أطرافاً ، وتعلم فيها شيئاً من علوم اللغة والأدب بوجه عام .

وقد كان لهذه المدرسة تأثير ظاهر فى عقل هذا الصبى وقلبه ينبئنا به الديوان . فقد حفظ الديوان للمتنبى مقطوعات من الشعر قالها الصبى وهو يختلف إلى المكتب .

وليس يعنينا أن نؤرخ بالدقة هذه المقطوعات ، فقد لا تكون السبيل ميسرة إلى هذا التأريخ . ولكن الشىء الذى نستطيع أن نحققه هو أن ثلاث خصال تظهر لنا فى هذا الشعر :

الخصلة الأولى أن الصبى مقلد فى الفن الشعرى ، يتأثر بما كان يحفظ فى المدرسة ، أو ما كان يسمع فيها من شعر القدماء ، ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعى فالأصل فى الابتداء الفنى التقليد بحيث يقلد المبتدئ واحدا أو غير واحد من الذين سبقوه فى الفن الذى يزاوله . يلتمس نفسه كما يقول الفرنسيون فى هذا التقليد حتى إذا وجدها استغل قواها وعواطفها واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته التى تنمو على مر الزمن وطول المران . فليس غريباً أن يكون فن المتنبى فى صباه فنًّا تقليديا ليست له قيمة خاصة .

والخصلة الثانية أن هذا الشعر ، شعر صبى متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة وبآراء الغلاة منهم خاصة ، وسنرى هذا بعد قليل .

والخصلة الثالثة أن هذا الشعر شعر صبى لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة وأخبارهم ، وعن كلفهم بسفك الدماء ، وشغفهم بالحروب والغارات . وقد يجوز أن نضيف إلى هـذه الخصال الثلاث ، خصلة رابعة ، وهى أن هذا الصبى كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم الهجاء .

وكل هذه الخصال تدلنا على أن الصبى قد كان ممتازاً حقاً ، فليس قليلاً على صبى لم يكن يتجاوز العاشرة أن يقول شعراً يروى ، وأن يمس بهذا الشعر الغزل والحماسة ، والمدح والهجاء وفلسفة الغالية من الشيعة .

والآن يحسن أن نقف عند هـذه المقطوعات لحظة لنرى أتصور حقاً كل هذه الخصال التى أحصيناها ؛ فانظر إلى هذين البيتين اللذين يحدثنا الديوان بأنهما أول ما نظم من الشعر فى صباه . وليس يعنينا أكانا فى الحق أول ما نظم أم لم يكونا . وإنما الذى يعنينا أنهما من شعر الصبى وأنهما يصوران ما أشرت إليه من التقليد ، ويصوران الصنعة والجهد والتكلف ، ويصوران صبياً يريد أن يصنع الشعر ويحس فى نفسه الرغبة فى ذلك فيعمد إليه ، ولكنه لا يحسن التصرف فيه :

بِأَبِى مَنْ وَدِدتُهُ فَافْتَرَقْنا
وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاكَ اجتماعا

فافتَرَقْنا حَوْلاً فلمَّا الْتَقَيْنا
كَانَ تَسْليمُهُ عَلَىَّ وَداعا

فالفكرة الشعرية التى يريد الصبى أن يصورها فى أنه أحب شخصاً ، فلم يكد يحبه حتى فرق الدهر بينهما ، ثم طال انتظاره للقاء من أحب وأتيح له هـذا اللقاء ، ولـكنه لم يطل بل فرق الدهر بينهما مرة أخرى . فالصبى سيئ الحظ يحب ثم يحال بينه و بين من أحب قبل أن ينعم بعشرته . ثم يتاح له اللقاء فيقدر أنه سيستدرك ما فاته من نعم ، ولـكن قسوة الدهر تخيب أمله هـذا أيضاً . وأكبر الظن أن الفكرة التى حملت الصبى على أن ينظم هذين البيتين هى هذه التى توجد فى الشطر الأخير من البيت الثانى وهى :

كان تَسْلِيمُهُ عَلَىَّ وَداعا

أعجب الفتى بهذا المعنى فأراد أن ينظمه ، وأن يصل إليه ، فتـكلف لذلك بيتاً ونصف بيت . وأنت ترى مظهر التـكلف فى قوله :

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُه فافْتَرَقْنا

فكلمة وددته هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار فى مكانها الذى هى فيه . أراد الصبى أن يقول أحببته فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلمة تؤدى له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن فلم يجد إلا « وددته » هذه . ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاك اجْتِماعا

فستراه فى نفسه حسناً مستقيما ولكنه مع الشطر الأول قلق ، يظهر عليه التكلف الشديد لا لشىء فيما أظن ، إلا لأن الشاعر الصبى قد أعجل ولم يملك ما ينبغى له من الأناة ولم يتم معناه الذى ضمنه الشطر الأول . و إنما وثب منه وثوباً إلى هذا المعنى الثانى ، لأنه عجل يريد أن يصل إلى الشطر الذى ألقى إليه ، والذى حمله على نظم هذين البيتين . وكذلك الشطر الأول من البيت الثانى يصور عبث الصبى واجتهاده ، وما كان يلقى من المشقة فى هذا الاجتهاد . فانظر إلى قوله « فافترقنا حولاً » بعد قوله « وقضى الله بعد ذاك اجتماعا » وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعاً ، فستظهر لك الصنعة والمحاولة ظهوراً لا يدع سبيلاً إلى

الشك فى أن الصبى قد أنفق جهداً ثقيلاً ووقتا طويلاً ، حتى استخرج من نفسه هذين البيتين .

وسواء أكان هذا الشعر جيداً أم رديئا مستقيما أم ملتويا فانى أجد فى نفسى حبا له وميلا إليه ؛ لأنى أتمثل هذا الجهد العنيف الذى بذله هذا الصبى الذكى ، حتى استخرج هذين البيتين . ومن يدرى ؟ لعلى إنما أحب هذين البيتين وأعجب بجهد الصبى فى استخراجهما ؛ لأنى شهدت صبيًّا أحبه يبذل مثل هذا الجهد ، وينفق مثل هذا الوقت ويستخرج مثل هذا الشعر ، ولم أجد بدًّا من أن أثنى له على شعره وأهنئه بما انتهى إليه من الفوز . ولم أكن فى هذه التهنئة ولا فى ذلك الثناء متكلفا ولا غالياً ، وإنما كنت صادقا مرسلاً نفسى على سجيتها ، أصدر عن العاطفة أكثر مما أصدر عن الفن .

وانظر بعد هذين البيتين إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخرى التى قالها صبينا فى حداثته ، كما ينبئنا الديوان ، وكما تنبئنا هى أيضاً . فسترى من جهة أنها كالبيتين الأولين . أُلْقِيَ منها على الصبى بيت هو البيت الأخير ، وهو الذى حمله على أن يتكلف البيتين الآخرين ليصل إليه ، وكان هذا البيت الأخير لحظ ذلك الشطر

الأخير من البيتين السابقين ، حفظه الناس وأحبوه ، وتمثلوا به لأنه وحي الطبع البريء وأهملوا ما قبله لأنه متكلف مصنوع :

أَبْلَى الهوَى أسَفاً يومَ النوَى بَدَنى
وفَرَّقَ الهجرُ بينَ الجفْنِ والوَسَنِ

رُوحٌ تَرَدَّدَ فى مِثلِ الخِلالِ إذا
أطارَتِ الرِّيحُ عنهُ الثوْبَ لم يَبِنِ

كَفَى بِجِسمى نُحولاً أنَّنى رَجُلٌ
لَولاَ مُخاطبَتِى إيَّاكَ لم تَرَنِى

فواضح جداً أن بيت المقطوعة هو البيت الأخير وأن الفكرة التى يريد الصبى تصويرها هى الإغراق فى وصف النحول . فانظر اليه كيف تكلف الوصول إلى هذا البيت :

أَبْلَى الهوَى أَسَفاً يومَ النَّوَى بَدَنى

فأسفا هنا كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوها عن موضعها أظهر من أن يدل عليه . ولكننا مع ذلك نلاحظ شيئاً من الموسيقى قد وفق الشاعر اليه بين الهوى والنوى ، وهو يدل على شيء من الرقى فى صناعة النظم . وعلى أن

الصبى قد استطاع أن يتصرف شيئاً ما فى الألفاظ .

ونلاحظ كذلك أنه قد صرع فى هذا البيت بين البدن والوسن ، صنيع الشاعر الذى يريد أن ينشىء قصيدة طويلة . ولعله لم يستطع أن يتجاوز البيت الثالث فوقف عنده . ولعله تجاوزه وأتم قصيدته ، ولكنه لم يرض عما بعد البيت الثالث فأسقطه حين أراد أن يجمع الديوان . أما البيت الثانى فعبث الصبى ظاهر فيه وهو لا يخلو من ظرف وخفة روح . هو إعادة لقول الشاعر القديم :

وَلَوْ أَنَّ ما أَبْقَيْتِ مِنِّى مُعَلَّقٌ

بِعُودِ ثُمَامٍ ما تَأَوَّدَ عُودُها

ولكن الصبى اختصر الطريق وأراح نفسه وجعل جسمه عود الثمام لا شيئا معلقا بهذا العود . ثم انظر إلى قوله :

أطارتِ الرِّيحُ عنه الثوبَ لم يَبِنِ

فسترى فيه الطفولة الحلوة ، والحداثة العذبة . وليس من شك فى أن طبيعة الشاعر الحدث قد واتته أكثر مما واتته فى البيتين السابقين .

واقرأ هذين البيتين الآخرين وكأنه ارتجلهما ارتجالاً حين

قيل له وهو فى المكتب ما أحسن هذه الوفرة فقال :

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى

مَنشُورةَ الضَفْرَيْنِ يومَ القِتالْ

عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدةً

يَعُلُّهَا من كُلِّ وافِي السِّبالْ

ولعلك تلاحظ معى أن فى هذين البيتين جزالة مطبوعة لا نلاحظها فى الأبيات السابقة . وأنهما بريئان البراءة كلها من الصنعة والتعمل ، ولكن لم أروهما لهذا وحده ، وإنما رويتهما لما يصوران من نزاع هذا الصبى الحدث إلى الحرب والقتال ورؤية الدم المسفوك . وما ينمان به من حفيظة تضطرب فى نفس الصبى ، وضغينة تضطرم فى قلبه الغض ، وتطلق لسانه بهذا الكلام الملتهب . ولك فى فهم هذين البيتين وجهان فيما يظهر . فهل كانت الوفرة التى استحسنت له وفرته هو ؟ وإذن فهو غير راض عن نفسه ولا مطمئن إلى حاله ، وإنما هو يتحرق شوقا إلى الشباب الذى يمنحه القوة والحرية ، وإلى الظروف التى تتيح له خوض غمار الحرب ، وعلى صعدته من دماء الأعداء ، أو هل كانت الوفرة وفرة تِرْب من أترابه فى المكتب ؟ فالصبى إذن

يهجو ولا يرضى عن هؤلاء الصبية المنعمين الذين يعنون بوفرتهم وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة .

ومهما يكن من شىء ففى هذين البيتين ريح البيئة الدامية التى كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبى ، بين تلك الغارات التى كانت تنتهى بالقرامطة إلى الكوفة وسوادها من حين إلى حين .

وتستطيع الآن أن تقرأ فى هذه الأبيات التى قالها الصبى يعبث فيها برجلين قتلا جرذا وأظهراه للناس :

لَقَدْ أَصْبَحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ
أَسِيرَ المَنَايَا صَرِيعَ العَطَبْ

رَمَاهُ الكِنَانِىُّ والعَامِرِىُّ
وتَلاَّهُ لِلْوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ

كِلاَ الرَّجُلَيْنِ أُتَّلِى قَتْلَهُ
فأَيُّكُمَا غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ ؟

وأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَلْفِهِ ؟
فإِنَّ بِهِ عَضَّةً فى الذَّنَبْ

فظاهر أن هذا الشعر ليس شعر صبى يُقَرْزِمُ وإنما هو شعر شاعر قد راض نفسه على نظم الكلام ، وتعلم كيف يصرف هـذا الكلام كما يحب من وجوه القول ، بل تجاوز رياضة النفس على اجادة النظم إلى التماس الهجاء الممض والسخرية اللاذعة ، وإلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب .

فالشاعر الناشىء يقص علينا فى البيت الأول والثانى قصة مؤثرة فيها ما يحزن ، وفيها ما يثير الإعجاب . فى البيت الأول ما يحزن ويدعو إلى الرثاء لهذا الجرذ المسكين الذى أسرته المنايا وصرعه العطب ، وفى البيت الثانى ما يعجب من أمر هـذا الكنانى وهذا العامرى اللذين تعاونا على رمى الجرذ وتلاه للوجه كما يفعل العرب البواسل . وفى هذين البيتين تنتهى القصة ظريفة سريعة مضحكة ، بما فيها من رثاء مصنوع ، وإعجاب متكلف . ولـكن شاعرنا الصبى لا يكتفى بالقصة وإنما يريد أن يستغلها ويستثمرها ويستخرج منها الذخائر والكنوز . فهو يحقق أن كلا الرجلين قد قتل الجرذ . فهل كانت للجرذ درع ؟ وهل كان له سيف ورمح ! وهل كانت له بيضة ودرقة ! وهل

كان يحمل ذهباً وفضة ومتاعاً ؟ كل هذه الصور يثيرها الشطر الأخير من البيت الثالث . ثم انظر إلى هذا البيت الأخير :

وأيُّكما كانَ مِنْ خَلْفِهِ

فإنَّ به عضَّةً فى الذَّنَبْ

فلن ترى سخرية ألذع من هذه السخرية ولا هجاء أمضَّ من هذا الهجاء . ولن ترى أشد من هذا الازدراء للحضريين من أهل الكوفة المعاصرين له ، الذين استسلموا واستكانوا وقنعوا من الشجاعة والنجدة ، ومن المخاطرة وحسن البلاء ، بأن يتعاون اثنان منهم على قتل جرذ ، ثم يظهران ذلك للناس إعجابا به واختيالا ، على حين تضطرب البادية بما يملؤها من الأهوال التى يثيرها القرامطة ، وعلى حين تندفع البادية من وقت إلى وقت حتى تبلغ الحضر وتبلغ الكوفة نفسها ، فتمزق أهلها كل ممزق وتعلمهم كيف يكون البأس والنجدة ، وكيف تكون الشجاعة والبسالة فلا يتعلمون .

حقاً لقد مرن الصبى على قول الشعر وصح فيه قول جرير فى عمر بن أبى ربيعة إن صدقتنى الذاكرة : ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر (١) .

(١) أغانى ج ١ ص ٣٨ (طبع بولاق) .

وللصبي مقطوعة أخرى في الهجاء ليس لها حظ هذه المقطوعة من الجودة ولا من البراعة في السخرية ولكنها تصور اتجاه الصبي إلى الصناعة اللفظية بعض الشيء. وهي هذه الأبيات التي قالها يهجو بها القاضي الذهبي:

لَمَّا نُسبتَ فكُنتَ ابناً لِغَيرِ أَبِ
ثُمَّ اختُبِرتَ فلم تَرجِعْ إلى أَدَبِ
سُمِّيتَ بِالذَّهبِيِّ اليومَ تَسْمِيَةً
مُشتَقَّةً من ذهابِ العقلِ لا الذَّهَبِ
مُلَقَّبٌ بِكَ ما لُقِّبْتَ وَيْكَ بِهِ
يا أَيُّها اللَّقَبُ المُلقَى على اللَّقَبِ

وأظن أن قول أبي تمام في بائيته المشهورة:

والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

هو المثال الذي صاغ الصبي عليه أبياته في هجاء القاضي. وكل ما في هذه الأبيات إنما هو ابتهاج الصبي بأنه قد استطاع أن يستنبط هذا المعنى فيجعل نسبة القاضي إلى شيء مشتق من ذهاب العقل لا إلى الذهب. والذي يعنينا من هذه الأبيات

إنما هو دلالتها على أن صبينا قد أخذ منذ طوره الأول يتجه بعض الاتجاه إلى مذهب أبى تمام .

قال الرواة : وقد خرج المتنبى من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها . وقد نما جسمه وعقله ، وفصح لسانه وأصبح فتى يملأ العين والأذن .

ومن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التى حملت الصبى على أن يرتحل إلى البادية . فهل ارتحل لمجرد التبدى والاستفادة لجسمه ولسانه وفنه الشعرى من الإقامة بين هؤلاء العرب الباديين الذين كان العلماء يختلفون إليهم ويقيمون بين أظهرهم ، يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر والأيام والأساطير ؟ أم هل ارتحل الفتى إلى البادية لشىء آخر غير هذا يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية التى كانت محيطة به ؟ وبعبارة أوضح هل ارتحل الفتى إلى البادية كما كان يرتحل إليها المتعلمون التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه البيئة القرمطية التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ، تبعث الرعب فى قلوب فريق منه وتبعث الحب فى قلوب فريق آخر ، كما هى الحال بالقياس

إلى الشيوعية الروسية الآن التى تتصل أشد الاتصال بطبقات الشعوب المتحضرة فى أوروبا وفى غير أوروبا . فيتهالك عليها قوم ، ويتألب عليها قوم آخرون .

ليس من اليسير أن نقطع بشىء من هذا ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون ، هو أن رحلة المتنبى إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ؛ فقد ربا جسمه ، ونما عقله وفصح لسانه ، وتعلم أصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معا . وشعر المتنبى فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، يبين لنا هذا أوضح تبيين وأجلاه .

فلننظر قبل كل شىء إلى هذه الأبيات التى استبقاها المتنبى فى ديوانه ، وهى عندى بقية من قصيدة لعلها كانت مطولة مفصلة ، فلما أراد المتنبى جمع ديوانه حذف منها أكثرها ، مداراة للظروف ، وإشفاقا من السلطان ، وهذه الأبيات الثلاثة التى استبقاها المتنبى كافية كل الكفاية لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من البادية القرمطية وهو قرمطى الرأى متحفز ليكون قرمطى السيرة أيضاً .

وفى هذه الأبيات الثلاثة جزالة بدوية لا تخفى :

إلى أيِّ حِينٍ أنتَ فى زِيِّ مُحرِمِ
وحَتَّى مَتَى فى شِقوةٍ وإلى كمِ ؟
وإلاّ تَمُتْ تحتَ السُّيُوفِ مُكرَّمًا
تَمُتْ وتُقاسِ الذُّلَّ غيْرَ مُكرَّمِ
فثِبْ وَاثِقاً باللهِ وثْبَةَ ماجِدٍ
يَرَى الموتَ فى الهيْجاجَنَى النَّحْلِ فى الفمِ

فانظر إلى هذا التحرق الذى يظهره الغلام إلى تغيير حاله والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة ، إلى حال أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة .

هو يكره لنفسه زى المحرم أى زى الرجل الوادع الذى يحرم ما حرم الله ، ويمتنع عن قتل الصيد ، وعما يمتنع عنه المحرمون بالحج . هو يريد أن يكون مُحِلاًّ ، وأن يتناول ما لا يتناوله الوادعون لأن حياة الدعة والإحرام لم تجن عليه إلا شقاء . فهو يريد أن يلتمس السعادة والعزة فى حياة البؤس والفتك ، وهو مطمئن إلى أنه إن لم يتعرض للبأس والفتك ، ولم يصطل نار الحرب اتقاء للموت كريماً تحت السيوف ، أدركه

الموت ذليلاً مهيناً فى ظل الدعة والإحرام .

وانظر إلى هذا البيت الأخير .

فثب واثقاً بالله وثبة ماجد

يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

فهو لا يريد بهذا الوثوب إلا الخروج على السلطان ، وشق عصا الطاعة والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف .

ليس عندى من شك فى أن هذه الأبيات تصور ما عاد به الغلام من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد ، المنتظرة من وراء هذا المذهب وانتشاره الخير كل الخير .

وتصور كذلك ما عاد به الغلام من البادية من هذه الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسبه عذوبة نحس فيها ريح الصحراء .

وإذا كانت هذه الأبيات تصور تأثر المتنبى بالبيئة العملية القرمطية ، فان هناك قصيدة أخرى طويلة بعض الشىء تصور تأثر المتنبى بالمذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة . وهى هذه القصيدة التى مدح بها المتنبى — فيما يقول الديوان — رجلاً يعرف بأبى الفضل ، وأراد أن يستكشف مذهبه ،

فيما يقول الديوان أيضاً ، وفيما يقول الرواة كذلك . وعندى أن المتنبى لم يرد أن يمتحن أبا الفضل ، ولا أن يستكشف مذهبه ، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل . وأن يمدحه بما كان هـذا الرجل يحب أن يُمدح به . وسواء علىَّ أكان المتنبى مؤمناً بهذه الآراء التى أثبتها فى قصيدته أم لم يكن ، فحسبى أنه أثبت هذه الآراء ، وجهر بها ، وتقرّب بها إلى رجل ، والتمس بها العطاء .

ولست أروى صدر هذه القصيدة ، فقد أحتاج أن أعود إليه حين أستأنف الكلام عن فنِّ المتنبى . وإنما أكتفى برواية هذه الأبيات :

يا أَيُّهَا المَلِكُ المُصَفَّى جَوْهَرًا
من ذاتِ ذى الملكوتِ أَسْمَى مَن سَما

نُورٌ تَظَاهَرَ فيك لاهُوتِيَّهُ
فتكادُ تعْلَمُ عِلْمَ ما لن يُعلَما

ويَهُمُّ فيكَ إذا نَطَقْتَ فصاحَةً
من كلِّ عُضْوٍ منكَ أن يتكلَّما

أَنَا مُبْصِرٌ وأظُنُّ أَنِّى نَائِمٌ
مَنْ كان يحلُمُ بالإلٰهِ فأَحْلُما
كَبُرَ العِيانُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ
صَارَ اليَقِينُ مِنَ العِيَانِ تَوَهُّمَا

فنحن هنا بإزاء رأى صريح فى الحلول ، فالمتنبى يرى أن صاحبه ملك قد صفى جوهره من ذات ذى الملكوت ، أى أن روحه قبس من ذات الله . وهو يرى أن هذا القبس نور لاهوتى قد استقر فى صاحبه ، فكاد يظهره على الغيب ، وهو يكبر ما يرى . فهو يقظان يرى الله ، وهو يظن أنه نائم ، ثم ينكر أن يكون نائماً ، لأن الله لا يرى فى الأحلام . وهو يكبر هذا العيان ، ويرى أنه أعظم وأجل من أن يثبت له أمثاله . فيرتاب فيما يرى ويكاد يتهم نفسه بالخيال والوهم . وهذا الكلام وحده صريح فى انحراف المتنبى عن الجادة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى الالحاد أقرب منها إلى شىء آخر .

ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يثبت هذه القصيدة فى الديوان زعم للرواة أو زعم الرواة له أنه إنما امتحن بهذه

الأبيات أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه . كلام يقصد به إلى الاعتذار وإلى التقِيَّة أكثر من أى شيء آخر .

وعندى أن المتنبى حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها لا بالبيئة القرمطية العادية ، بل بداعٍ من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون فى البادية . ومن يدرى ؟ لعل هـذا الداعى كان أبا الفضل نفسه هذا الذى يمدحه المتنبى . ومن يدرى ؟ لعل المتنبى لم يعد إلى الكوفة من البادية مصطحبا أباه وجده ، وإنما عاد مصطحباً رجلاً آخر أو قوماً آخرين ، يريدون أن يستقروا فى الكوفة وأن يدعوا فيها لمذهب القرامطة .

ومهما يكن من شيء وسواء واتتنا النصوص التى بقيت لنا أم لم تواتنا ، فانى أجد فى نفسى شعوراً قوياً جداً بأن المتنبى قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة . وعلى كل حال فقد أغار القرامطة على الكوفة سنة ست عشرة وثلثمائة ، يقودهم إمامهم أبو طاهر فدمروا وحرقوا ونهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل [1] . وكانوا يقدرون أن الطريق ستخلو لهم إلى بغداد . ولكن الأمر لم يتم لهم كما أرادوا . فعذبوا

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٥٦

الـكوفة وسوادها ، وأرهبوها عاماً كاملاً ، ثم رحلوا بعد ذلك إلى البحرين .

وكان المتنبى حين أغار القرامطة على الـكوفة فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان المتنبى حين جلا القرامطة عن العراق فى الخامسة عشرة من عمره .

ونلاحظ أنه فى ذلك الوقت بعد جلاء القرامطة عن العراق لم يستقر فى الـكوفة . وإنما يحدثنا الرواة أنه ارتحل عنها وارتحل معه أبوه إلى بغداد . فلماذا ارتحل إلى بغداد بعد جلاء القرامطة عن الـكوفة ؟ ألأنه كان يريد أن يذهب إلى بغداد ليتم الدرس ، وليشق طريقه إلى المجد الأدبى ، فأخرت غارة القرامطة رحلته شيئاً ما ؟ أم لأنه كان قد تورط وتورط معه أبوه ، وتورط معهما كثير من الناس فى فتنة القرامطة هذه ؟ فلما انهزم القرامطة وجلوا عن العراق لم يستطع المتنبى وأمثاله أن يقيموا فى الـكوفة إشفاقا من السلطان ومن تتبعه للذين أعانوا القرامطة من قريب أو من بعيد .

كلا الأمرين ممكن ، ولـكنى أرجح الأمر الثانى لأنه يلائم ما رأينا من نشأة المتنبى كلها . ولأن إقامة المتنبى فى بغداد

لم تتصل ، ولو قد كان المتنبى قصد إلى بغداد يلتمس العلم والأدب والمجد الشعرى ، لأقام فيها فأطال المقام ، ولأتَّصل بالمعروفين من علمائها وأدبائها وأصحاب المكانة السياسية والاجتماعية فيها . ولكنه فيما نعلم لم يصنع من ذلك شيئاً ، إنما أقام ببغداد فترة قصيرة ، ثم ارتحل عنها إلى الجزيرة وشمال الشام ، ومعه أبوه فيما يقول الرواة .

هل ذهب المتنبى إلى بغداد هارباً من السلطان كما قلنا ؟ أم هل ذهب إليها هارباً من السلطان ومبتغياً شيئاً آخر ؟ فلو قد أراد الهرب وحده لكان فى البادية وصحراء السماوة مَفزع ومهرب من السلطان . ولكنه يترك الكوفة إلى عاصمة الخلافة ، حيث القوة المركزية التى كانت تصارع القرامطة أشد صراع وأعنفه .

أحب أن نذكر هنا أن أمور الشيعة والقرامطة لم تكن تجرى فى وضوح ويسر ، وإنما كان قوامها التكتُّم والتحفظ ، والجماعات السرية المبالِغة فى حفظ السرّ وإخفائه . وما دُمتُ قد افترضتُ منذ حين أن المتنبى إنما ذهب إلى البادية ليتعلَّمَ على بعض دُعاة القرامطة ، فلأمض فى الفرض على طبيعته ،

ولأرجح كما قدّمت أن المتنبى عاد من البادية مع بعض دعاة القرامطة ، واشتغل فى الكوفة بنشر الدعوة القرمطية ، وأن المتنبى سافر من الكوفة بعد جَلاء القرامطة ، فقصد إلى بغداد لأمر يتصل بالدعوة . ولستُ أستبعد ، بل أنا أُرجِّح جدا أن يكون فى بغداد مركز قوى من مراكز الدعوة القرمطية . ذهب إليه المتنبى فأدَّى إليه شيئاً ، وتلقى منه شيئاً ، وترك بغداد قاصداً إلى الجزيرة ثم إلى الشام .

لست أدرى أتسعدنا النصوص التى بقيت لنا من شعر المتنبى أم لا تسعدنا ؟ ولكنى قوى الشعور بأن المتنبى لم يرحل إلى الشام طالباً للرزق فحسب ، وإنما ذهب إلى الشام داعية من دعاة القرامطة ، فى هذا القسم الشمالى من سوريا ، الذى لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطى ، كما أدرك غيره من أقسام الشام .

مهما يكن من شىء فلم يكد يبلغ المتنبى السابعة عشرة من عمره حتى كان قد هجر الكوفة ، وترك بغداد ، وانتهى إلى شمال الشام ، واستأنف حياة جديدة ليست من الصِّبا فى شىء ، وإنما هى حياة الشباب . طالبًا للرزق

فلنستخلص من كل ما قدمنا أن المتنبي قد قطع المرحلة الأولى من طريقه ، مرحلة الصِّبا . ولم يكد يبلغ آخرها ، حتى كان قد تمّ له حظه من الشعر ، وتمّ له حظه من القرمطة ، وتمّ له حظه من القوة البدنية أيضاً . ويكفي أن ننظر في هذه القصيدة التي قالها في بغداد ، يمدح بها رجلا رسميًّا — محمد بن عبد الله العلوى — لنرى منها أنه قد استكمل حظه من القدرة على نظم الشعر الجيد ، وإن لم يبلغ بعدُ ما قدِّر له من النبوغ :

أهلاً بِدارٍ سَباكَ أَغْيَدُهَا
أبْعَدُ ما بانَ عنكَ خُرَّدُها

ظَلْتَ بها تنْطَوِى علَى كَبِدٍ
نَضِيجَةٍ فَوْقَ خِلْبِها يَدُهَا

يا حادِيَىْ عِيسِها وأَحْسَبُنِى
أُوجَدُ مَيْتًا قُبَيْلَ أفقِدها

قِفَا قَليلاً بها عَلَىَّ فلا
أقَلَّ من نَظْرَةٍ أُزَوَّدُها

فَفِى فُؤادِ الْمُحِبِّ نارُ جَوًى
أَحَـرُّ نارِ الجحيمِ أَبْرَدُها
شابَ مِنَ الْهَجْـرِ فَرْقُ لِمَّتِهِ
فَصارَ مِثْلَ الدِمَقْسِ أَسْـوَدُها
بانُوا بِخُرْعُوبَةٍ لَها كَفَلٌ
يَكادُ عِنْـدَ الْقِيامِ يُقْعِدُها
رِبَحْلَةٍ أَسْـمَرٍ مُقَبَّلُها
سِـبَحْلَةٍ أَبْيَضٍ مُجَـرَّدُها
يا عاذِلَ العاشِـقِينَ دَعْ فِئَةً
أَضَلَّها اللهُ كيف تُرْشِـدُها
لَيْسَ يُحِيـكُ المَلامُ فى هِمَمٍ
أَقْرَبُهـا منكَ عَنْـكَ أَبعَدُها
بِئْسَ اللَّيالِى سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ
شَوْقًا إِلى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُها
أَحْيَيْتُهـا والدُمـوعُ تُنْجِدُنى
شُـؤُونُها والظَّلامُ يُنْجِدُها

لا ناقتى تقبلُ الرّديفَ ولاَ
بالسّوْطِ يومَ الرّهانِ أُجْهِدُهَا
شِراكُها كُورُهَا ومِشْفَرُهَا
زِمامُها ، والشُّسُوعُ مِقوَدُهَا
أَشدُّ عَصْفِ الرّياحِ يَسْبِقُهُ
تَحْتِيَ مِنْ خَطْوِهَا تأَوُّدُهَا
فى مِثْلِ ظَهْرِ المِجَنِّ مُتَّصِلٍ
بمِثْلِ بطْنِ المِجَنِّ قَرْدَدُهَا
مُرْتَمِياتٌ بنا إلى ابْنِ عُبَيْـ
ـدِ اللّهِ غِيطانُهَا وفَدْفَدُهَا
إلى فتى يُصْدِرُ الرِّماحَ وقد
أَنْهَلَهَا فى القُلُوبِ مُورِدُهَا
لهُ أيادٍ إلَىَّ سابقةٌ
أُعُدُّ مِنْهَا ولا أُعَدِّدُهَا
يُعْطِى فلا مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا
بهَا ولا مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا

خَـيْرُ قُرَيْشٍ أَبًا وَأَمْجَدُهَا
أَكْثَرُهَا نائـلاً وأجودُها
أَطعَنُها بِالقَنـاةِ أَضْرَبُهَـا
بِالسَّيْفِ جَحْجاحُها مُسَوَّدُهَا
أفرَسُهـا فارِسًـا وأطولُهـا
باعاً ومِغْوارُهَا وسَـيِّدُهَا
تَاجُ لُؤَىِّ بْنِ غالِبٍ وبه
سَمَا لها فَرْعُهـا ومَحْتِـدُهَا
شَمْسُ ضُحَاها هِـلالُ لَيْلتِها
دُرٌّ تقاصِـيرها زَبَرْجَدُهَا
يا لَيْتَ بى ضرْبةً أُتيحَ لهـا
كما أُتيحت له مُحَمَّـدُهَا
أَثَّر فيها وفى الحـديدِ وَما
أَثَّرَ فى وَجْهِـهِ مُهَنَّدُهَا
فاغْتَبَطَتْ إذْ رأتْ تَزَيُّنَهَـا
بِمِثْلِهِ والجِراحُ تَحْسُـدُهَا

وأيقنَ الناسُ أنَّ زارِعَها
بِالمَكرِ في قلبِه سيَحْصدُهَا

أصبحَ حُسَّادُهُ وَأنْفُسُهُمْ
يُحْذِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصعِدُهَا

تبكي علَى الأنصُلِ الغمودُ إذا
أنذرَها أنَّهُ يُجرِّدُها

لِعلمِها أنَّها تَصِيرُ دماً
وأنَّهُ في الرِقابِ يُغمِدُها

أطلقَهَا فالعدُوُّ مِن جزعٍ
يَذُمُّها والصَّدِيقُ يَحمَدُها

تنقدِحُ النَّارُ من مَضارِبِها
وَصَبُّ ماءِ الرِّقابِ يُخمِدُها

إذا أضَلَّ الهُمامُ مُهجَتَهُ
يوماً فأطرافُهنَّ تَنْشُدُها

قد أجْمعَتْ هذه الخليقةُ لي
أنك يا ابنَ النَّبِيِّ أوحَدُها

وأنكَ بالأمْسِ كُنتَ مُحْتلِماً
شيخَ معدٍّ وأنتَ أمردُها
وكَمْ وكَمْ نِعْمَـةٍ مُجَلِّلَةٍ
رَبَّيتها كانَ مِنكَ مَوْلِدُها
وكَمْ وكَمْ حاجةٍ سَمَحْتَ بها
أقربُ مِنّي إليَّ موعدُها
ومَكرُماتٍ مَشَتْ عَلَى قدمِ الْ
برِّ إلى مَنزِلِي تُرَدِّدُها
أقَرَّ جِلدِي بها عَلَيَّ فلا
أقدِرُ حَتَّى المماتِ أَجحَدُها
فعُدْ بِها لا عَدِمتُها أبداً
خَيْرُ صلاتِ الكَرِيمِ أعودُها

فالقصيدة كما ترى طويلة قد بلغت الأربعين بيتاً ، وهى أطول ما حفظ ديوان المتنبى لنا من شعره فى هذا الطور . وهى كاملة الخلق قد استوفت حظها من النظام الفنى الموروث .

وهى تنقسم ثلاثة أقسام :

القسم الأول غزل من هذا الغزل الذى تعود الشعراء أن يفتتحوا به القصيدة . وقد طال نفس الشاعر فيه شيئاً فبلغ أثنى عشر بيتاً .

والقسم الثانى وصف من هذا الوصف الذى تعود الشعراء أن ينتقلوا إليه إذا قضوا حظهم من الغزل ، وأن يتخذوه طريقاً إلى الغرض الأساسى الذى يقصدون اليه . وقد قصر نفس الشاعر فيه فلم يتجاوز به خمسة وعشرين بيتاً . ومعنى هـذا كله أن الفتى قد أخذ يعقد شعره و يسلك إليه طريق غيره من الشعراء ، و يلم فى القصيدة الواحدة بغير فن من فنون الشعر لا يجد فى ذلك مشقة ولا حرجا ، ولا يحتمل فى ذلك جهداً ولا عناء . وأنت إذا أخذت القصيدة جملة رأيت طبيعة الشاعر سمحة سهلة مواتية لا تبخل عليه ولا تعنيه ، و إنما تمنحه كل ما يريد منها . فلسنا نحس تكلف المحصر ولا جهد المقل . ولعلنا نحس أن هذه القصيدة كانت تتدفق من نفس الشاعر كما يتدفق السيل ، وتنحدر منها انحداراً يوشك أن يكون عنيفاً . ولعل مصدر هذا الإحساس هذا البحر الذى اختاره الشاعر والذى تظهر فيه السرعة والانحدار ، وتدافع فيه أبيات القصيدة وألفاظ

البيت تدافع الموج . ولعل مصدر هذا الإحساس أيضاً هذه القافية التى اختارها الشاعر ، والتى جمعت بين خصلتين ظاهرتين : إحداهما المتانة والقوة ، والأخرى الرحب والسعة . فهذه الدال التى تسبقها حركة يسبقها سكون تصور المتانة والقوة . وهذه الهاء المطلقة تصور الرحب والسعة .

وأنت إذا أخذتها تفصيلاً استطعت أن تتبين فيها خصلتين فنيتين هما الآن — وسيكونان دائماً — القوام الفنىّ لشعر المتنبى ، يسرف فيهما أحياناً فيفسد شعره ، ويقتصد فيهما أحياناً فيجمل شعره ، ولكنه لا يكاد يخلص منهما فى وقت من الأوقات :

فأما الخصلة الأولى فهى المطابقة التى يحبها المتنبى أشد الحب ، ويستخرج منها فنوناً من الجمال نراها فاترة فى الطور الأول من شعره ، ولكنها تقوى وتشتد كلما استكمل الشاعر حظه من القوة ، فنونا من الجمال تؤثر فى العقل والذوق والحس جميعاً ، فتنشىء شيئاً من الموسيقى اليسيرة الحلوة فى أكثر الأحيان . ذلك أن المتنبى يحسن المقابلة بين الأضداد فى أنفسها ، كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التى يختارها ، ليدل بها على هذه

الأضداد ، فاذا تمت له المقابلة بين المعانى المتضادة وتم له الاختيار الحسن للألفاظ التى تدل عليها ، عرف كيف يضعها فى مواضعها من النظم ، وكيف يلائم بينها و بين ما يسبقها وما يلحقها من الألفاظ ، وتَأَتى له بذلك تحقيق شىء من الانسجام البديع يلهيك ويشغلك عما تكلف الشاعر من الجهد فى تحقيق هذا الفن . ولست فى حاجة إلى أن أعيد عليك ما فى هذه القصيدة من الأبيات التى عمد فيها المتنبى إلى المطابقة فوفق أحياناً ، وأخطأه التوفيق أحياناً أخرى . فما أظنك إلا قد لاحظت هذه الأبيات أثناء قراءة القصيدة ، وليس عليك بأس من أن تعود إلى قراءتها مرة أخرى لتتحقق صحة هذه الملاحظة .

والخصلة الثانية المبالغة التى يعمد اليها المتنبى لأسباب سنوضحها فى هذا الموضع من الحديث . ولكننا نكتفى الآن بأن نلاحظ منها طبيعة المتنبى نفسه ، فهو قوى الحس ، حاد المزاج ، عنيف النفس ، مندفع بحكم هذا كله إلى الغلو والاسراف . وكذلك نلاحظ تقليد الشاعر لشعراء القرن الثالث الذين كلفوا بالبديع وأمعنوا فيه وعنوا منه بالمبالغة عناية خاصة .

ثم نلاحظ آخر الأمر انتشار مذهب المبالغة بين النقاد منذ

صوّره قدامة فى كتابه نقد الشعر [١] ، وأذاعه على أنه مذهب أرسططاليس وآثره فى الشعر كما كان يؤثره أرسططاليس على القصد والاعتدال [٢] ، فجمال الشعر عند المتنبى فى هذا الطور ، وفى الأطوار التى تليه ، راجع دائماً إلى هاتين الخصلتين الفنيّتين : المطابقة من ناحية ، والمبالغة من ناحية أخرى ؛ يجمع بينهما الشاعر حيناً ويفرق بينهما حيناً آخر ، فيعجبك مرة ويسوءك مرة أخرى .

فأما إذا أخذت أجزاء القصيدة الثلاثة ، وامتحنتها جزءاً جزءاً ، فلن تجد فيها للمتنبى شخصية قوية ولا معنى مبتكراً ، وإنما هى المعانى المألوفة فى الغزل والوصف والمديح ، حتى هذه المحاولة التى أراد الشاعر بها أن يظهر شيئاً من الجهد حين وصف نعله ، حيث يصف الشعراء إبلهم ، وأسبغ على هذه النعل من الصفات ما يسبغه الشعراء على الابل . هذه المحاولة نفسها ليست مبتكرة وإنما هى إطناب وتفصيل ، حيث آثر أبو نواس الاجمال والايجاز فى قوله :

إِلَيْكَ أبا العباسِ مِن دون مَن مَشَى
عليها اُمْتَطَيْنَا الحَضْرَمِيَّ المُلَسَّنَا

(١) كتاب نقد الشعر لقدامة ص ١٩ (طبع الجوائب)
(٢) Poètique II et XXIV

فلم يزد المتنبى على أن قال إنه سعى إلى ممدوحه ماشياً يركب نعليه كما قال أبو نواس ، ولكنه فصل ذلك ، فشبه أجزاء النعل بالأدوات التى يصطنعها راكب الناقة .

وإذا كانت هذه المحاولة تقليداً صرفاً من الجهة الفنية الخالصة ، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية ؛ لأنها على الأقل تنبئنا بأن الشاعر الفتى لم يسافر من الكوفة إلى بغداد راكباً ، وإنما ذهب إليها راجلاً ، وذهب إليها راجلاً مسرعاً يسابق الريح . فإذا صح هذا التقدير فإن الفتى قد أعجل عن الاستعداد للرحيل ، وفرّ من الكوفة فراراً كما قدمنا .

والمدح الذى يكوّن الجزء الثالث من القصيدة ، والجزء الأهم والأطول ، ليس أدنى إلى الابتكار ولا أقرب إلى التجديد من الجزأين الأولين . بل هو برىء من الابتكار الجدى إن صح هذا التعبير كل البراءة . هو مدح تقليدى بأوضح معانى الكلمة وأدقها ، لا يتجاوز الشاعر به أن يصف ممدوحه ، بأنه أكرم قريش وأشجعها وأعظمها حظا من الخصال التى يمتاز بها الرجل حقا ، وبأنه كان أحلم قريش وأحكمها حين بلغ الحلم ، وبأنه ابن النبى ، وبأنه أوحد الخليقة وأجمعها

لصفات النبــل والشرف إلى غير هذا من الأوصاف التى تعود الشعراء أن يرصُّوها فى مدحهم رصًّا . ومع ذلك فقد حاول الشاعر أن يجدد فأخطأه التوفيق ، وظهر أنه لا يزال فى حاجة إلى ممارسة قول الشعر وتصريف الكلام ، وذلك حين أراد أن يذكر الضربة التى تلقاها ممدوحه فى وقعــة من الوقعات ، فزعم أن هذه الضربة شرفت ممدوحه ، ولم تلحق به ضرراً ولا أذى .

فهذا تفـكير أطفال وحديث فتى يلغو . والمتنبى معتمد فى مدحه كما اعتمد فى غزله ووصفه على الطباق والمبالغة ، ويظهر ذلك ظهوراً واضحاً حين يحدثنا بأن الأغماد تبكى على النصول إذا علمت أنها ستجرد ، وبأن هذه النصول تغمد فى الأعناق والرءوس فتقدح النار ، ولكن الدماء التى تسفـكها تخمد هذه النار التى تقدحها . فأنت ترى فى هـذا الـكلام المبالغة والطباق معاً ، وتحس فيــه محاولة الشاعر استغلال هذين الأصلين من أصول البديع وأنه إن وفق فى ذلك حيناً فما يزال يخطئه التوفيق كثيراً . لأنه على تقدمه فى الصنعة لم يستكمل بعد حظه من المهارة والإتقان .

على أن هذه القصيدة تدلنا على شيء آخر له قيمته من الناحية التاريخية . فالشاعر لم يمدح أحداً من رجال الحكم ، ولم يتجه إلى أحد من المتصلين بالسلطان العباسى القائم ، وإنما مدح رجلاً علويا ، فأوضح ما يستنبط من ذلك أن المتنبى حين وصل إلى بغداد كان محتفظاً بمذهبه السياسى ، منحرفاً عن السلطان العباسى القائم فى بغداد . ولكننا لا نرى فى القصيدة مذهب القرامطة ولا إشارة إلى نظرية الحلول . فلا أقل من أن نفهم من ذلك أن شاعرنا متحفظ محتاط ، وأنه لا يمدح هذا العلوى رغبة فى مدحه أو إخلاصاً فى حبه وحب العلويين ، وإنما يمدحه ملتمساً لنواله — يريد أن يستعين بهذا النوال على الرحيل من بغداد إلى الشام .

وأثناء إقامة المتنبى فى بغداد رأى الفتى من غير شك ما لم يره فى الكوفة ولا فى البادية من مظاهر الترف وألوان النعيم ، وفنون العبث واللهو . فزاد سخطه على النظام الاجتماعى ، وحنقه على توزيع الثروة بين الناس ، والغريب أنه لم يستبق مما رأى ومما سمع فى بغداد هذه المرة إلا ما ترويه لنا عنه الأخبار من أنه كان يمشى مرة فى بغداد ، ومعه

خمسة دراهم ، فرأى بطيخاً أعجبه لأنه كان باكورة ، فساوم فيه صاحبه حتى عرض عليه دراهمه الخمسة ، ولكنه لم يبلغ منه شيئاً . ووقف الفتى حزيناً ينظر إلى البطيخ وإلى الدراهم ، وإذا تاجر يخرج من خان مقابل لبائع البطيخ ، فينهض البائع إليه متملقاً مبالغاً فى التملق ، يدعو له ويعرض عليه بطيخه ، والتاجر يأبى ويمتنع ، والرجل يهبط بالثمن شيئاً فشيئاً حتى سمح التاجر وطابت نفسه عن شراء هذا البطيخ بدرهمين اثنين ، وأمر البائع أن يحمله إلى داره . فلما انصرف التاجر أظهر المتنبى عجبه لصاحب البطيخ من هذه الحماقة التى حملته على أن يرفض خمسة دراهم كان يعرضها عليه ويقبل من التاجر درهمين ، لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والعناء . فقال له التاجر : ويلك إنه يملك مائتى ألف دينار ! !

ويزعم الرواة على المتنبى أنه أحب المال منذ ذلك الوقت وكلف بالغنى ، وحرص على أن يملك مائتى ألف دينار .

ومهما يكن من أمر هذه القصة فلست أُريد أن أحملها أكثر مما تحتمل ، ولست أرى فيها إلا رمزاً لما تأثَّر به

الشاعر الفتى أثناء إقامته فى بغداد من حماقة العامة واستكانتهم وطغيان الخاصة والأغنياء ، و إسرافهم فى استغلال هــذه العامة الحمقاء المستكينة .

أقبل الفتى على بغداد قرمطيا منهزماً ، حانقاً على النظام الاجتماعى والسياسى ، وخرج من بغداد إلى الشام ، وأضاف حنقاً إلى حنق ، وسخطاً إلى سخط ، وازداد حظه من التمرد على السلطان والنظام . و إذا أضفنا إلى هذه القصــة قصة أخرى يرويها الرواة عن المتنبى الصبى أثناء إقامته بالـكوفة استطعنا أن نتبين العناصر الخلقية والعقليــة التى كوّنت شخصية هذا الفتى المندفع المخاطر والضارب فى الأرض يبتغى شيئاً لعله لم يكن يحققه ولا يعرفه إلا توهماً .

فقد زعم الرواة أن الصبى كان يختلف إلى ورّاق فى الـكوفة يجاس عنده و ينظر فيما يحضره من الـكتب ، فأقبل ذات يوم رجل ، ومعه كتاب لأبى عبيدة فى اللغــة ، يقع فى ثلاثين ورقة ، وكان الرجل يعرض كتابه للبيع ، فأخذه الصبى وجعل يطيل النظر فيه حتى ضاق به البائع وقال له : يا هذا إنما جئت بهذا الـكتاب لأبيعه وأنك إذا أردت حفظه

واستقصاءه احتجت إلى أيام . قال الصبى فإذا كنت قد وعيت ما فيه ؟ قال البائع فهو لك . ثم امتحن القوم الصبى فإذا هو قد حفظ ما فى الكتاب .

لا أريد أن أحمل هذه القصة أيضاً أكثر مما تحتمل ، وإنما أرى فيها رمزاً لنشاط الصبى وحضور ذهنه وحدَّة ذكائه . وإذن فقد أدرك الفتى نفسه وهو متميز من غيره بذكاء غير شائع فى الناس ، وهو مع ذلك فقير بائس يشتهى من لذات الحياة المتواضعة ما لا يستطيع أن يبلغه وإن بذل الجهد والمال ، والأغنياء البُله من حوله ينعمون ويترفون ويكرهون على النعيم والترف إكراهاً ، فلا غرابة فى أن يمتلئ هذا الفتى بنفسه وفى أن يشعر قلبه بعض هذه الحياة التى تجرى فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والحق والإنصاف . ولا غرابة فى أن يقصد إلى الشام وفى نفسه خواطر كثيرة مختلطة مضطربة ليس من اليسير تمييزها ، ولكنها على كل حال خواطر متشائم ساخط يريد أن تتغير الظروف من حوله لمصلحة الناس جميعاً ، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل فلا أقل من أن تتغير الظروف حوله لمصلحته هو خاصة .

وأكاد أعتقد أن حياة المتنبى بعد سفره من بغداد تمثل هذين النوعين من الأمل ، وهذين الفنَّين من المحاولة . فهو فى أول أمره مخلص صادق فيما بينه وبين نفسه ، معجب بنفسه من غير شك ، ولكنه ليس مسرفاً فى الأثرة ، يرى أنه قد يستطيع تغيير ظروف الحياة لمصلحة المظلومين والمستضعفين وسبيله إلى ذلك نشر الدعوة القرمطية وتغيير الأمور السياسية فى مكان بعيد بعض الشىء عن مركز السلطان ومستقر الخلافة. وقد اندفع الفتى فى ذلك وجهد فى أن يصل إليه مخاطراً يوماً متحفظاً يوماً آخر ، متجاوزا الحدود يوماً ثالثاً ، حتى أدركه الاخفاق ثم أدركه اليأس ، فلم يجد بداً من المرتبة الثانية التى تقوى فيها الأثرة بعد أن أخفق الايثار ، ويقوى فيها الطمع وحب النفس بعد أن أخفق الرفق بالناس والنصح لهم وحملهم على الاصلاح .

هنالك ظهر المتنبى على طبيعته الصحيحة التى أخفاها حينا كرم الشباب ، واندفاعه الطبيعى إلى الخير ، فلما أدركه الاخفاق وألمت به الخيبة انجلت عنه غمرة الشباب ، وظهر كما أراد الله له أن يكون شاعراً نابغة ، نابه الذكر مؤثراً لنفسه بالخير

مسرفاً فى إيثار نفسه بالخير لا يستبقى من آماله الأولى إلا الحقد على الجماعة والازدراء لها والبغض لما تقدم عليه من نظام وتخضع له من سلطان ، ولكننا فيما يظهر نتعجل الحوادث بعض الشىء ، والخير فى أن نصطنع الأناة ونساير الشاعر فى طريقه حتى نقطع معه المرحلة الثانية التى انتهت به إلى السجن ثم إلى اليأس والقنوط .

———

٦

وأول مسألة تعرض لنا فى هذه الطريق ، مسألة تاريخية بالطبع ، أو مسألتان تاريخيتان . فمتى ارتحل المتنبى عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التى قالها فى الشام قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟

فأما المسألة الأولى فليس إلى الجواب عنها من سبيل ؛ لأن المؤرخين لا يحدثوننا بشىء يعين الوقت الذى خرج المتنبى فيه من بغداد أو يقرّبه . والديوان نفسه لا ينبئنا من هذا بشىء ، ولكنى أرجح خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير (١) أن إقامة المتنبى فى بغداد لم تطل ، وإنما مر الشاعر بها مراً لم ينفق فيها إلا الوقت الذى مكن له من أن يتهيأ للرحيل إلى الشام ؛ لأنه لم يكن آمناً فى بغداد كما لم يكن آمناً فى الكوفة . وعندى أنه خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير أيضاً لم يختلف إلى مجالس العلماء ، ولا إلى أندية الأدب ، ولم يتصل بأحد من

(١) R. Blachère : Abou t-Tayyib al-Motanabbî 35

الأشخاص الظاهرين فى بغداد إلا محمد بن عبد الله العلوى الذى مدحه بالقصيدة التى فرغنا من تحليلها آنفا ؛ وما أراه مدحه إلا ليستعين بنائله على الرحيل .

لم يكن المتنبى آمنا فى بغداد لأنه كما رأيت كان قرمطى الهوى ولأن بغداد كانت شديدة الاضطرابات بأحداث القرامطة الذين كانوا يغيرون عليها منذ وقت قصير . وما أرى إلا أن المتنبى قد أنفق ما أنفق من الوقت فى بغداد وجِلاً مضطرباً ، وخرج منها خائفاً يترقب ، وانتفع فى إقامته وسفره بأنه شخص مجهول لا ينم عليه اسم معروف ، ولا تفضحه مكانة ممتازة . وأكبر الظن أن خوفه واحتياطه هما اللذان حملاه على أن يخفى اسمه ونسبه إن كان له نسب على القبائل التى كان ينتقل بينها اثناء رحلته .

وأوضح دليل على أنه لم يطل الإقامة فى بغداد أن ديوانه لا يحفظ لنا شعراً قاله فى بغداد إلا مدحه لهذا العلوى . ولو قد أقام المتنبى ببغداد إقامة أمن وفراغ بال ، لما أعياه أن يقول كثيراً من الشعر فى كثير من الأشخاص وفى كثير من المشاهد التى شهدها فى دار السلام .

وأما المسألة الثانية فالأمر فيها مختلف بعض الشيء ، فقصائد المتنبي التي قالها بين خروجه من بغـداد ودخوله السجن منثورة في القسم الأول من ديوانه على نحو يظهر أنه قصد به إلى كثير من التعمية والتضليل . فهناك قصائد مقدمة في الديوان وقد كان إنشاؤها متأخراً ، وهناك قصائد متأخرة في الديوان ، وقد كان انشاؤها متقدما . وما أشك في أن هـذا التأخير والتقـديم شيء أريد لأمر ليس في حاجة إلى التوضيـح . وأ كثر الأشخاص الذين قصد إليهم المتنبي بمدحه وثنائه في هذا الطور خاملون لم يعرفهم أو لم يكد يعرفهم التاريخ .

ومع ذلك فقـد يخيل إليّ أن توقيت هـذه القصائد إن لم يكن ممكنا كله فليس مستحيلاً كله ، ولي إلى ذلك التوقيت طريقتان .

فأما أولاهما فتتصل بنفس الشاعر ، وأما ثانيتهما فتتصل بطريق الشاعر حين اضـطرابه في بلاد الشام ، فاما الطريقة الأولى : وهي الطريقة النفسية إن صح هذا التعبير فإني استنبطها من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التي كان يحياها المتنبي قبل أن تلم به الكارثة ، فقـد رأيناه قرمطي الهوى في الكوفة

لا يتحفظ ولا يحتاط ، ورأيناه شيعيا فى بغداد متحرجا يصطنع الحذر ، ورأينا أنه فى أكبر الظن إنما سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إليها هناك . وإذن فلابد إن صح هذا الغرض من أن يمتاز شعر المتنبى فى هذا الطور من حياته بشيئين : أحدهما آراء قرمطية تظهر فى هذا الشعر من حين إلى حين لأنها هى آراء الشاعر ، وهى قوام حياته وتفكيره ونشاطه الخفى ، فلا يستطيع الشاعر أن يمحوها من آثاره الأدبية محواً . والثانى تحفظ واحتياط ، وايثار للعافية يدفع الشاعر إلى أن يخفى آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك ، وإلى أن يلمح بهذه الآراء إذا أمن أو طمع ، وإلى أن يجهر بما يمكن الجهر به من هذه الآراء إذا أمن واطمأن . فإذا استطعنا أن نتبين هاتين الخصلتين فى طائفة من قصائد المتنبى فأكبر الظن أن هذه القصائد قد قيلت فى هذا الطور . على أنى أكثر اعتماداً على الطريقة الثانية الجغرافية منى على هذه الطريقة الأولى النفسية ، فالظاهر أن المتنبى قد خرج من بغداد متابعاً طريق الجزيرة حتى انتهى إليها فأقام فيها وفى شمال الشام دهراً يتنقل بين القبائل البادية وبين المتحضرين فى المدن ، يمدح الرؤساء وسراة

الناس كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضاً ، وهو فى أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى الذى كانوا يخضعون له فى ذلك الوقت خضوعاً فيه غير قليل من التلون والاضطراب . فإن وجد عندهم استعداداً لقبول دعوته أذاعها فيهم و إن لم يجد كتم عنهم أمره ، وهو فى الحالين يعيش بما يأخذه منهم أجراً لما يهدى إليهم من المديح .

وأنت إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبى بعد خروجه من العراق رأيته ينقسم ثلاثة أقسام جغرافية إن صح هـذا التعبير :

القسم الأول قيـل فى الجزيرة وشمال الشام ، ومدح به جماعة من رؤساء البادية ، وأغنياء الحاضرة وأوساطها ، وأصحاب المناصب فيها . والقسم الثانى قيل فى اللاذقية وهو موقوف على التنوخيين الذين قد نطيل عنهم الحديث . والقسم الثالث قيل فى طرابلس .

يحدثنا الشاعر نفسه بذلك ، وأنت تفهم من سياق شعره فى التنوخيين ، أنه قد غاب عن اللاذقية حيناً ، فأقام فى طبرية

ثم عاد إليها . وإذن فيخيل إلىّ أن المتنبي قد جاء سوريا من شمالها فأقام فى هذا الشمال دهراً ، ثم مضى فأقام فى طرابلس حيناً قصيراً ، ثم انحرف إلى اللاذقية ، فأطال فيها المقام شيئاً ، ثم انصرف عنها إلى طبرية فأقام قليلاً ، ثم عاد إلى اللاذقية فجدد العهد بها وتهيأ فيها لما كان يريد أن يحدث من خطب ، ثم تركها إلى البادية غير بعيد عن حمص ، فلم يكد يعلن الدعوة إلى الثورة حتى أخذ ، وألقى فى السجن . ويجب أن يكون أخذه وإلقاؤه فى السجن ، فى سنة ثلاث أو أربع وعشرين وثلثمائة . فنحن نراه يمدح أحد التنوخيين ، ويبرئ نفسه إليه من تهمة رمى بها عنده ، وهى تهمة الهجاء له ؛ فيقول :

وما أَرْبَتْ عَلَى العِشرِينَ سِنِّى
فَكيفَ مَلِلتُ مِنْ طُولِ البَقَاءِ

وأقل ما يفهم من هذا البيت أن الشاعر قاله سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وسترى أنه مدح التنوخيين قبل أن يحدث الأمر الذى اضطره إلى السجن . وأظن أننا حين نستعين بهاتين الطريقتين نستطيع أن نوقت توقيتاً مقارباً تاريخ هذا القسم من شعر المتنبي ، وأن نمحو الغموض الذى أحيط به هذا

القسم عمداً فى الديوان ، بما اصطنع فيه من تقديم وتأخير .

ومهما يكن من شىء فإنى أفترض أن المتنبى قد سلك هذه الطريق التى رسمتها مع قليل أو كثير من الانحراف لا يؤثر فى صورتها العامة تأثيراً ذا خطر . و إذن فسأسْلك هذه الطريق نفسها فى درس شعره فى هذا الطور على النحو الآتى :

١ — شعره فى سوريا الشمالية .

٢ — شعره فى طرابلس .

٣ — شعره فى اللاذقية .

٤ — شعره حين كان يستعد للثورة فى البادية .

٥ — وأخيراً شعره فى السجن .

٧

وبين أيدينا فى الديوان — إن صح ما ذهبت إليه من الفرض ، وما عمدت إليه من الإحصاء — ست عشرة قصيدة ومقطوعة قالها المتنبى فى أول عهده بالشام ، حين كان فى الشمال متنقلاً بين أهل البادية وأهل الحضر .

وقد مدح بهذا الشعر أو بأكثره على الأقل جماعة من العرب ، ليس فيهم إلا مضرىٌّ واحد ، هو سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابىّ القيسى ، ومدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أَحيا وَأَيْسَرُ ما قاسَيتُ ما قَتَلا
والبَيْنُ جارَ على ضَعْفِي وما عَدَلا

ولبعض الكلابيين من رهط هذا الرجل ، قال هاتين المقطوعتين فيما أرجح ، وفيهما تلميح ظاهر إلى غرضه ، وإلى دعوته القرمطية :

إذا ما شرِبْتَ الخمرَ صِرْفاً مهنَّأً
شَرِبنا الذى من مثلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ

أَلا حبَّذا قومٌ نداماهُمُ القنا
يُسَقُّونها رِيًّا وساقيهمُ العَزْمُ

***

لِأَحِبَّتى أنْ يملئوا
بالصافياتِ الأكْؤُبا
وعليهمُ أن يبذُلوا
وعلَىَّ أن لا أشرَبا
حتى تكونَ الباترا
تُ المُسْمِعاتِ فأطْرَبا

وفيهم رجل واحد هو سيف الدولة . مدحه فى هذا الطور بميميته التى يقول فى أولها :

ذِكْرُ الصبا ومَرابعُ الآرامِ
جلَبَتْ حِمامِى قبلَ وَقْتِ حِمامِى

وأما الآخرون فقحطانيون ، منهم الأزدى ، وهو

أبو المنتصر شجاع الأزدى ، وقد مدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ

وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

ومنهم جماعة من الطائيين ، هم على بن أحمد الطائى ،

ومدحه بالقصيدة التى أوّلها :

حُشاشةُ نفسٍ وَدَّعَتْ يومَ وَدَّعُوا

فلم أدرِ أىَّ الظاعنِين أُشَيِّعُ

وشجاع بن محمد الطائى ، وقد مدحه بقصيدتين مطلع

أولاهما قوله :

عزيزُ أَسًى من داؤُهُ الحَدَقُ النُّجْلُ

عَياءٌ به ماتَ المُحِبُّونَ من قبلُ

ومطلع الثانية قوله :

اليومَ عَهدُكمُ فأينَ الموعِدُ

هيهاتَ ليسَ لِيَوْمِ عهدِكمُ غدُ

وعبد الله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن البحترى الشاعر

وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما :

بَكيتُ يا رَبْعُ حتى كِدتُ أُبكيكا

وجُدتُ بي وبِدَمْعي في مَغانيكا

ومطلع الثانية :

أَرِيقُكِ أَمْ ماءُ الغمامةِ أم خَمرُ

بِفِيَّ بَرُودٌ وهْوَ في كَبدي جَمرُ

ومدح أخاه بالقصيدة التي يقول في أولها :

ما الشوقُ مُقتنِعاً مِنِّي بِذا الكَمَدِ

حتَّى أكونَ بِلا قلبٍ ولا كَبدِ

ونلاحظ أنه في هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحتري الشاعر جدَّ ممدوحيه ولم يشر إليه ، ولعل هذا يلائم ما كان معروفاً عن المتنبي من الإمعان في قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء ، والادعاء مع ذلك أنه لا يقرؤهما ولا يحسن العلم بهما حتى افتضح في ذلك[1] .

ومدح غير هؤلاء محمد بن زريق ، وكان على بعض العمل في طرسوس بالقصيدة التي مطلعها :

---

(١) الصبح المنبي ص ٧٩ ، ٨٠

هٰذِى بَرَزْتِ لنا فهِجتِ رَسيساً
ثُمَّ انثنيتِ وما شَفَيتِ نَسيساً

ولما أراد أن يرتحل من طرسوس استجداه بالأبيات التى أولها :

مُحَمَّدُ بْنَ زُرَيْقٍ ما نَرَى أَحَـدا
إذا فَقَدْناكَ يُعْطِى قبلَ أن يَعِـدا

ومدح كذلك مساور بن محمد الرومى ، وكان حاجباً بقصيدتين يقول فى أولاهما :

جَلَلاً كما بِى فَلْيَكُ اُلْتَبْرِيحُ
أَغِذاءُ ذا الرَّشأ الأَغَنِّ الشِّيحُ

ويقول فى الأخرى :

أَمُساوِرٌ أم قَرْنُ شمسٍ هــذا
أم لَيْثُ غابٍ يَقدُمُ الأُسـتاذا

ومدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى بالقصيدة التى أولها :

صِـلَةُ الهَجرِ لى وهَجرُ الوِصالِ
نَـكَسَانى فى السُقمِ نَـكْسَ الهِلالِ

وكل هؤلاء الناس كان مقيما فى شمال سوريا حين مدحه المتنبى ، فمنهم من كان بأنطاكية ، ومنهم من كان بمنبج ، ومنهم من كان بطرسوس ، ولا يتعرض منزل واحد منهم للشك إلا أن يكون مساور بن محمد الرومى ، وأحسب المتنبى لقيه فى حلب أو قريباً منها .

و يرى الأستاذ بلاشير [١] والدكتور عبد الوهاب عزام [٢] : أنه لم يمدح مساوراً إلا فى وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ؛ والذالية تؤيد هذا الرأى ، ولكنى مع ذلك أميل إلى ترجيح ما قدمته ، ولعله مدحه مرتين . مدحه بالحائية فى طوره هذا و بالذالية بعد موت ابن رائق ، و إن كانت إغارة المصريين على الشام قد تكررت .

وأنت إذا قرأت هذا الشعر كله لم تشك فى أنه الشعر الذى يلى ما قدمنا الحديث عنه فى الفصول السابقة ، أى أنه الشعر الذى قيل فى آخر الصبا وأول الشباب ، وعند وصول المتنبى إلى شمال الشام .

---

(١) R. Blachère : Abou t-Tayyib al-Motanabbî p. 109

(٢) ذكرى أبي الطيب للدكتور عزام ص ٥٨

فيه كل الخصائص التى تثبت هذا إثباتاً قاطعاً ، فالآراء القرمطية ظاهرة فيه كما سترى ، إلا أن يتحفظ الشاعر و يحتاط . والمذهب الفنى الذى ابتدأ الفتى به شعره ظاهر فيه كل الظهور تقليد للقدماء ، ولأبى تمام خاصة ، واعتماد ظاهر على الطباق والمبالغة ، يسرف فيهما إن استعصت عليه القريحة ، و يقتصد فيهما إن واتاه الطبع .

ثم ظاهرة أخرى نجدها فى هذا العصر عند جماعة من الشعراء ولم يسلم منها المتنبى ، لا فى هذا الطور ولا فى بعض الأطوار الأخرى التى تليه ، وهى تكلف القوافى التى لا تخلو من عسر والتى لم يكن المطبوعون من الشعراء المتقدمين يتكلفونها ؛ فكافيته فى مدح البحترى ، وذاليته فى مدح مساور ابن محمد الرومى تدلان على أن الفتى كان يأخذ نفسه بشىء من الشدة ليظهر شيئاً من البراعة فى اصطناع القوافى ، والقدرة على استذلالها .

ثم أنت حين تقرأ هذا الشعر تكاد تحس فى ألفاظه ، ومعانيه ، وأساليبه بنمو طبيعة الشاعر ، وتقدم ملكته الفنية نحو الرشد والنضج شيئاً فشيئاً . ولولا أنى أكره الاطالة

والإملال فيما لا حاجة إلى الاطالة فيه والإملال به لاستقصيت هذا المقدار من شعر المتنبى ، ولدرسته قصيدة قصيدة ، ومقطوعة مقطوعة ، ولحاولت أن أستنبط من هذا الاستقصاء والدرس نمو الملكة الفنية عند هذا الشاعر الشاب ، ولكنى إن فعلت أثقلت عليك وعلى نفسى ، ولم أنته بك ولا بنفسى إلى غاية هذا الحديث . فخذ أنت هذا الشعر وقف عليه من وقتك أياماً ، فما أشك فى أنك ستصل إلى ما لا أريد أنا أن أطيل فيه . ولكنى واقف معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد فى أن تتذوقه لعلنا نتعرف أصول فنِّ المتنبى فى شىء من التفصيل والوضوح ، ينفعنا حين نعبر هذا الطور من أطواره الفنيَّة .

ولنأخذ لاميته التى مدح بها سعيد بن عبد الله ، فإنها خليقة ببعض التفكير لأنا نلتمس فيها صبا الشاعر وطفولته ، لا فى اللفظ وحده ، بل فى الشعور والتفكير أيضاً ، فاقرأ معى هذا الغزل الذى قدمه بين يديه :

أَحيا وأَيسَرُ ما قاسَيتُ ما قَتَلا
والبَينُ جارَ على ضَعفى وما عدلا

فانظر إليه كيف أراد أن يعبر عن أنه يحتمل من البين

ما لا سبيل إلى الحياة معه ، فدار حول هذا المعنى ، ولم يستطع أن يؤديه إلا فى شىء من التكلف ، فاصطنع هذا الفعل فى أول البيت ، ثم أضاف إليه هـذه الجملة الحالية ثم لم يستطع أن يؤدى هذه الجملة الحالية نفسها دون شىء من المعاظلة حين جمع بين هذين الموصولين فى قوله :

أيسر ما قاسيت ما قتـــلا

ولعله أشفق من التنافر الذى يأتى من كثرة القافات فآثر هذا التعقيد اليسير . ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

والبين جار على ضعفى وما عدلا

فسترى فيـه طباقا ظاهرا يخلب بعض الشىء ، ولكنك ستحس أن الشطر كله لا حاجة إليه ، وأن القافية قد أكرهت إكراهاً وعتلت إلى مكانها عتلاً ، وأن الشاعر قد استوفى معناه الأساسى فى الشطر الأول ، ثم جاء بالشطر الثانى ليتم البيت . فإذا انتقلت إلى البيت الثانى :

والوَجْدُ يقوَى كما تقوَى النَّوَى أبَدًا

والصَّبْرُ يَنْحَلُ فى جِسْمِى كما نَحَلا

أحسست فى نفس الشاعر فرحا بهذه الملاءمة التى اهتدى إليها

بين قوة النوى وقوة الوجد فى الشطر الأول ، و بين نحول الصبر ، ونحول الجسم فى الشطر الثانى . و بهذا الطباق البعيد بين قوة الوجد والنوى ، ونحول الصبر والجسم . ولكن انظر إلى قوله : أبدا ، فسترى أن هذه الكلمة إنما جاءت لتقيم وزن الشطر لا لشىء آخر ، فإن لقوة النوى و إن كانت غريبة حدا يجب أن تنتهى إليه فتنتهى معها قوة الوجد ، وانظر إلى الشطر الثانى كيف أعاد الضمير فيه على الجسم فى شىء من التكلف لا يخفى ، ثم انتقل إلى البيت الثالث :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ

لَهَا المنَايَا إلى أَرْوَاحِنَا سُبُلَا

فسترى فيه مبالغة ظاهرها يخلب ، ولكن تحقيقها يدل على أن صاحبها صبى ، لم ينضج تفكيره بعد ، ذلك إلى إرجاع الضمير فى لها على المنايا ، مع تقدم الضمير وتأخر المرجع فى اللفظ ، وأنا أعلم أن هذا ليس خطأ ، ولست أذكره لذلك ، و إنما أذكره لأضع يدك على الجهد الذى يبذله الصبى فى إقامة شعره .

واقرأ البيت الرابع :

بِما بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفًا

يَهْوَى الحياةَ وأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلَا

فستنكر منه هذا الاستحلاف الذى يفجأك بهذه الباء تليها باء أخرى لا يفصل بينهما إلا هذا الموصول ، وهو حاجز غير حصين كما يقول النحاة . ثم أتم قراءة البيت فسترى فيه قصوراً فى الأداء لم يستطع الشاعر أن يخلص منه فاضطر إلى الحذف وإلى الاضمار . فهو يريد أن يقول لصاحبته : صلى دنفا يهوى الحياة ما وصلته ، فأما إن صددت عنه فليس يهواها .

والمتنبى مضطر بحكم الجهد إلى مثل هذا التكلف ، ولكنه سيمضى فيه وسيستجيزه ، ولعله كان يحس من الناس شيئاً من الإنكار فيأبى عليه عناده إلا أن يغيظ مخاصميه بالإلحاح فيما يكرهون ، وما دام النحو يجيز له مثل هذا فليس عليه بأس من الايغال فيه ، وكذلك ينتقل المتنبى من التكلف إلى التعقيد ، ومن التعقيد الذى تفرضه الضرورة إلى التعقيد الذى يصبح مذهباً من مذاهب الشعر ، وفناً من فنون الأداء .

مثل المتنبى فى ذلك مثل الفرزدق الذى كان يرى المعاظلة وسيلة من وسائل الأداء الشعرى ، ويتعمد تجاوز المألوف ليغيظ

خصومه من النحويين [١] ؛ ثم انظر إلى البيت الخامس :

إِلاَّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ

شَيْبًا إِذَا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلا

فقد صرف فيه الشيب تصريفا يكاد يذكر بتلاميذ المكاتب ، فجاء منه بالمضارع والماضى والمصدر ، ثم أسنده إلى الكبد . ثم لم يكفه ذلك حتى جعل السلوة خضابا ، وحتى جعل شيب هذه الكبد مستعصياً على هذا الخضاب .

أما البيت السادس فحلو مؤثر ، فيه حنين الفتى ، لا إلى صاحبته هذه ، بل إلى وطنه ذلك الذى هجره ، والذى ما زال يتنسم ريحه ، ويمسك على نفسه عقله بما يحمل إليه هذا النسيم :

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً

تَزُورُهُ فِي رِيَاحِ الشَّرْقِ ما عَقَلاَ

ولكن الشاعر لا يكاد يدع هذا البيت حتى يعود إلى التكلف والجهد فاقرأ البيت السابع :

ها فانظُرِى أَوْ فَظُنِّى بى تَرَىْ حُرَقاً

مَنْ لم يَذُقْ طَرَفاً منها فقدْ وَألا

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧

فإنك واضع يدك على ما فى هـذا البيت من المشقة والعسر فهذه الهاء فى أول البيت ، وطلب الشاعر إلى صاحبته أن تنظر أو أن تظن به أى أن تتخيله ، ثم إنباؤه إياها بأنهـا إن نظرت أو ظنت به فسترى به حرقا مهلـكة ، وانظر إليه كيف عبر عن هذه الحرق المهلـكة بأن من لم يذق منها طرفا فقد نجا . فما أظن أن التكلف ينتهى بشاعر إلى تقصير أشد من هذا التقصير .

ولـكن شاعرنا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره فليس عليه من هذا الجهد بأس ، وسترى إذا أمضيت فى قراءة الديوان أن النسيب ليس من الفنون التى يحبها المتنبى أو يحفل بها ، و إنما هو يتكلفه على غير طبعه احتفاظاً بالسـنة المألوفة عند الشعراء .

وانظر بعد هذا الغزل كيف تخلص الشاعر إلى ممدوحه بهذا البيت الذى عابه عليه النقّاد ظالمين :

علَّ الأَمِيرَ يرَى ذُلّى فيَشْفَعَ لِى

إلى التى ترَكَتْنِى فى الهوَى مَثَلا

فهم أنكروا على الفتى أن يجعل الأمير شفيعاً له عنـد

صاحبته ، ولكنهم نسوا أن الفتى يمدح رجلاً بدوياً ، وأن السُّنَّة كانت متصلة بأن قوماً أعظم خطراً من هذا البدوى قد شفعوا فى الحب للمحبين .

أو لم تحفظ الأخبار أن الحسين بن على شفع لقيس ابن ذريح عند أبى لبنى (١) ، وأن بعض عمال الأمويين شفع لقيس بن الملوح عند أبى ليلى (٢) ، وأن ابن أبى عتيق سفر بين عمر و بين الثريا (٣) ، فما يمنع المتنبى أن يشفع هذا الأعرابى الكلابى عند التى تركته مثلاً فى الهوى ؟

ليس على الشاعر بأس من هذا البيت ، و إنما البأس عليه من البيت الذى يليه والذى يمثل طفولة الشاعر وسذاجته حقاً .

أيقنْتُ أنَّ سَعِيدًا طالبٌ بِدَمِي
لَمَّا بَصُرْتُ بهِ بالرُّمْحِ مُعْتَقِلا

فدع هاتين الباءين اللتين توشكان أن تلتقيا فى الشطر الثانى لولا هذا الضمير الضعيف الذى يحول بينهما ما استطاع ،

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ١١٣ (طبع بولاق)
(٢) الأغانى ج ١ ص ١٧٣ « «
(٣) الأغانى ج ١ ص ٢٦ « «

وانظر إلى هـذا التكلف الشنيع ، إلى هـذا التكلف فى المعنى لا فى اللفظ . رأى الفتى ممدوحه ، وقد اعتقل الرمح فاستيقن أنه طالب بدمه . عند من ؟ عند صاحبته هذه التى تعنيه وتضنيه وتجعله مثلاً للعشاق المدنفين . ما أقسى قلب هذا الفتى الذى يحمد من أميره أن يهدد حبيبته بالرمح ، فلو أن الأمير طعنها بهذا الرمح فقتلها أ كان يرضى عنه هـذا الغلام ؟ أم هو يريد حباً بالا كراه ، ويرى أن صاحبته غرة مثله إذا رأت الرمح خافت واسمحت بما كانت تبخل به ، وما موقف الأمير بين هـذين العاشقين ؟ قد كنا نحتمله شفيعاً ، فأما مخوفا ومكرها على الحب فلا . ولـكن الفتى لم يرد شيئاً من هذا ، وإنما هو عبث شاعر واحتيال فى الوصول إلى الممدوح مع شىء من الظرف والدعابة ، ما أرى إلا أنه وقع من نفس الممدوح الأعرابى موقعاً حسناً ، وإن لم يعجبنا نحن المتحضرين .

ويمضى الشاعر فى مدح عادى لصاحبه ، قوامه المبالغة فى وصف الـكرم حتى يصل إلى هـذا البيت الذى لا بأس بما فيه من الموسيقى ، وإن كانت المبالغة فيه شنيعة حتماً :

تُرَابُهُ في كلابٍ كُحْلُ أَعْيُنِهـا
وَسَيْفُهُ في جَنابٍ يَسْبِقُ العَـذَلاَ

فانظر إلى الملاءمة الموسيقية بين تراب وكلاب وجناب ، وانظر إلى نظمه للمثل السائر في غير تكلف ولا جهد ، ولكن ما رأيك في قوم يكتحلون بالتراب .

وانظر إلى هذه الأبيات .

هُوَ الأميرُ الذى بادَتْ تميمٌ به
قِدْماً وساقَ إليها حَيْنَها الأجَلاَ
لمَّا رَأَوْهُ وَخَيْلُ النَّصْرِ مُقْبِلَةٌ
والحَرْبُ غَيْرُ عَوانٍ أسلموا الحِلَلا
وضاقَتِ الأَرْضُ حتى كان هارِبُهُمْ
إذا رأى غـيرَ شىءٍ ظَنَّهُ رَجُلا

فالبيت الأخير منها يذكرك من غير شك بقول جرير للأخطل :

ما زِلتَ تحسبُ كل شىءٍ بعْدَهُمْ
خيـلاً تَشُـد عليكم وَرِجالا

واقرأ هذا البيت :

فبَعْدَهُ و إلى ذا اليومِ لوْ رَكَضتْ
بالخيلِ فى لَهَوَاتِ الطِّفْلِ مَا سَعَلا

فما رأيك فى هذا الطفل الذى تركض فى لهواته تميم بخيلها فلا يأخذه السعال ؟ ما عسى أن يكون هذا الطفل ؟ وما عسى أن تكون تميم وخيل تميم ؟

وعلى هذا النحو من الكلام الذى تتكلف فيه المبالغة فى المعنى والملاءمة بين الألفاظ يمضى الشاعر حتى يتم قصيدته . ونحن لا نكاد نخرج من هذه القصيدة بشىء ذى غناء ، إلا أننا نرى هذا الفتى يكلف نفسه ألوان الجهد وفنون العناء ، مبتهجاً بذلك غير محزون له ، ولا مظهر به ضجراً ؛ لأنه يستقبل فنّه وأمله بنشاط الفتوة وميعة الصبا ، وهذه الثقة التى لا يعرفها إلا الشباب .

ولم يصرح المتنبي فى هذه القصيدة بمذهبه القرمطى ، ولم يلمح له ، ولكنك رأيت أنه قد لمح لأقارب الممدوح فى المقطوعتين السابقتين ، وليس من شك فى أنه أقام مع هؤلاء الكلابيين ما أقام ، وقال لهم ما قال دون أن يجد عندهم غناء .

فلنقف لحظة قصيرة عند هذه القصيدة الأخرى ، التى مدح بها المتنبي أبا المنتصر شجاع بن أوس بن معن الرضى الازدىّ كما يقول الديوان ، فسنرى أن القراءة الأولى لهذه القصيدة تخالف القصيدة الماضية خلافاً ظاهراً من وجوه :

ففى هذه القصيدة الثانية نحس للشاعر غناء صادقا ، يصور نفسه ويجلو عواطفه . وليس العشق فى هذا الغناء إلا رمزاً غامضاً لمعنى غامض ، هو الذى يتغنى الشاعر به دون أن يعرب عنه فى أول الأمر ، وإنما يتركه لك ، تفهم منه ما تشاء أو تفهم منه ما تستطيع . فإذا كنت ملماً بحياة الشاعر ، ظاهراً على دخائله مصاحبا له منذ نشأته الأولى ، شاهداً لما مازج صباه من حزن ، وما عرض له فى حياته من أسى وحسرة ، فأنت فاهم عنه ، محقق لما يتغنى به ، وإن كنت غريباً عن الشاعر تسمع له مصادفة وتقرؤه على غير علم دقيق بحاله ، فأنت تراه شاعراً كغيره من الشعراء يعشق كما يعشقون ، فينسب كما ينسبون . ويكفى أن تقرأ الأبيات الأولى من هذه القصيدة لترى صحة ما أشير إليه :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ ومِثْـلِى يأْرَقُ
وَجَوًى يزِيدُ وعَـبْرَةٌ تترَقْرَقُ
جَهْدُ الصَّبابةِ أنْ تـكون كما أُرَى
عَـينٌ مُسهَّـدَةٌ وَقلبٌ يخْفقُ
مالاَحَ برْقٌ أوْ ترنَّمَ طائرٌ
إلاَّ انثنيْتُ وَلِى فؤادٌ شَيِّقُ

فالشاعر فى هـذه الأبيات يتغنى كما ترى غناء غامضاً بعواطف مبهمة ، و إن ظهر منها أنها العشق ، ولـكن هذا الغناء صادق اللهجة قوى النغمة ، يصـدر عن قلب حزين و ينتهى إلى القلوب فيثير فيها الحزن والأسى . فأرق الشاعر متصل يقفو بعضه أثر بعض ، والشاعر يقرر ذلك ولا ينكره ؛ لأنه يرى أن مثله خليق أن يأرق . فأما عامة الناس فيفهمون من هـذا الشطر الأول شدة العشق ، وحدة الحب ، ولوعة الهوى ، وأما العارفون بأمر المتنبى فيفهمون من هذا الشطر همَّ الشاعر الذى يطيل ليله و يضاعف أرقه ، وأمل الشاعر الذى يملأ قلبه ، و يبعد عن متناوله . والشاعر محزون يزيد حزنه كلما مرت الساعات

والأيام ، وقد ينتهى به هذا الحزن المتصل المتزايد إلى البكاء .

ثم انظر إلى البيت الثانى :

جَهْدُ الصَّبابةِ أن تـكونَ كما أُرَى
عــينٌ مُسَهَّدَةٌ وقَلْبٌ يَخْفِقُ

فهل ترى غناء أصدق من هذا الغناء ، وأبلغ تأثيراً فى النفس ، ومع ذلك فليس فى البيت شيء جديد ، ولا معنى طريف ، ولـكن صدق لهجة الشاعر ، والجمع بين تسهيد العين وخفقان القلب يشيع فى هذا البيت حزناً لا أدرى كيف أحققه ، ولـكنى أعلم أنه شديد العدوى سريع الانتقال إلى سامعيه وقارئيه .

ثم انظر إلى هذا البيت الثالث :

ما لاحَ بَرْقٌ أو تَرَنَّمَ طائرٌ
إلاّ انثنيتُ وَلِى فُؤَادٌ شَــيِّقُ

فسترى فيه مثل ما رأيت فى البيت السابق ، وستجد فيه حنين الشاعر إلى وطنه الذى لم تزل نفسه به متصلة لم تسل عنه بعد .

ثم اقرأ الأبيات الثلاثة التى تأتى بعد ذلك ، فسترى أن الشاعر قد أدرك نفســه فاخفى شخصه ، وتـكلف ما يتكلف الشعراء من هذا النسيب المصنوع . فظهر تـكلفه فى لفظه ،

وأسلوبه ومعناه ، فهو قد جرب من نار الهوى ما تنطفىء نار الغضا قبل أن ينطفىء ، وما تعجز نار الغضا عن إحراق ما يحرقه ، فالمعنى فى نفسه ليس شيئاً وليس أداؤه بخير منه :

جَرَّبْتُ من نَارِ الْهَوَى ما تَنْطَفِى
نارُ الْغَضَا وتَكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ

واقرأ البيت الذى يأتى بعد ذلك ، فسترى طفولة الشاعر قد عادت إلى الظهور ، وستحس رضى الصبى أو رضى الفتى عن هذا المعنى الذى يحسبه شيئاً ، وليس بشىء ، وإنما هو السخف الذى يخدع العامة ، وليس من ورائه طائل :

وعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ
فَعَجِبْتُ كيفَ يَموتُ من لا يَعْشَقُ

يريد أن العشق وحده هو سبيل الموت ، وقد سبق المتنبى نفسه إلى هذا المعنى فى القصيدة التى حللناها آنفا حين قال :

لولا مُفَارَقَةُ الأَحبابِ ما وَجَدَتْ
لها المنَايَا إلى أرْوَاحِنَا سُبُلاَ

ولما عرف الشاعر أنه قد كان مخطئاً فى لوم العشاق قبل أن يذوق العشق لم ير بدًّا من أن يعذرهم ، ومن أن يعترف بأن

ما يلقى من ألم العشق وجواه ليس إلا جزاء له على ما قدم إلى العاشقين من ذنب :

وعَــذَرْتُهُمْ وعرَفتُ ذَنبى أننّى
عَيَّرْتُهُمْ فلقِيْتُ فِيه ما لَقُوا

فالشاعر كما ترى ممعن فى تكلفه ، راض عن هذا التكلف يحسب أنه قد استنبط معنى خطيراً ، فهو يتمه ويستوفيه ، ولعلك أحسست كما أحسستُ أنا أن الشاعر قد آذى نفسك حين بدأ صادقا فأرضاك ، ثم انحدر إلى التكلف فأسخطك . ولكن الشاعر نفسه قد أحس هذا التكلف وهو ضيق به لا يطيق المضى فيه ، وهو محزون حقاً ، ولا بد له من أن يعود إلى لهجته الأولى ، ومن أن يرسل نفسه على سجيتها ، ومن أن يتغنى حزنه العميق ، وهو فى هذا الغناء أوضح شيئاً منه فى الغناء الذى بدأ به القصيدة :

أبَنِى أبينَا نحنُ أهلُ منازلٍ
أبدًا غُرابُ البَيْنِ فِيها ينعَقُ
نبْكى على الدُنْيا ومَا مِنْ مَعْشَرٍ
جَمَعَتْهُمُ الدُّنيا فلَمْ يتفرّقُوا

أينَ الأكاسِرَةُ الجبابرَةُ الأُلَى
كنزُوا الكُنُوزَ فما بَقِيْنَ ولا بقوا
مِنْ كلِّ من ضاقَ الفضاءُ بجَيْشِهِ
حتى ثوَى فحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرْسٌ إِذا نُودُوا كأن لمْ يعلَمُوا
أنّ الكلامَ لهمْ حَلالٌ مُطلَقُ
فالموتُ آتٍ وَالنفُّوسُ نفَائِسٌ
والمُستغِرُّ بما لدَيهِ الأحمَقُ
والمْرءُ يَأمُلُ والحياةُ شهِيَّةٌ
والشَيْبُ أَوْقرُ والشّبيبَةُ أنزَقُ
ولقدْ بكيْتُ عَلَى الشّبابِ ولِمَّتِي
مُسْوَدَّةٌ ولِماءِ وَجْهِي رَوْنَقُ
حَذَرًا عليه قبلَ يوْمِ فِراقِهِ
حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفْنِي أَشْرَقُ

اقرأ هذه الأبيات ؟ أرأيت ما فيها من الحزن ؟ ألحظت البيت الأول منها كيف يمثل اطمئنان الشاعر إلى هؤلاء

الذين يتحدث إليهم لأنهم بنو أبيه ليسوا مضريين ولا عجما ؟

أرأيت أنه يسجل أن القحطانية أهل منازل ينعب فيها غراب البين أبدا . فالهجرة من طبعهم ، والغربة معروضة عليهم ؟

ثم أرأيت كيف مضى الشاعر فى هذه الشكوى مغلسا فى سذاجة توشك أن تكون عامية ، بل هى أشبه بالوعظ منها بالفلسفة ؟ ولكن الذى ينبغى أن نفكر فيه هو أن هذه الفلسفة الساذجة أصل لهذه الشجرة التى ستنمو وتمتد أغصانها حتى تملأ شعر المتنبى مواعظ وحكماً وأمثالاً .

والذى ينبغى أن نفكر فيه أيضاً هو أننا نكاد نحس فى هذه الأبيات بدء التفكير الفلسفى الحزين عند هذا الفتى ، وأن هذا التفكير الفلسفى إنما يأتى من رجوع الفتى إلى نفسه أولاً وإلى قومه ثانياً .

فهو يرى نفسه غريباً مشرداً ، سىء الحال ، وهو يرى قومه بعد ذلك غرباء مشردين ، قد تسلط عليهم من كان ينبغى أن يتسلطوا هم عليه ، واستأثر بالأمر دونهم من كان ينبغى ألا يكون له من الأمر شىء . والطباق كما ترى فى هذه الأبيات ، هو القوام الفنىّ لشعر الشاعر لا يعدل

عنه ، ولا يكاد يعدل به أداة فنية أخرى .

وانظر إلى آخر هذه الأبيات ، وإلى بكاء الشاعر على الشباب ، وهو فى ريعان الشباب ، وإلى تعليل الشاعر لبكائه هذا على شباب لم يفارقه ، بل لم يكد يستقبله ، بالخوف من مفارقته التى ليس منها بد .

وأكبر ظنى أن الشاعر يتكلف التعليل هنا ، كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين ، واعتذاره بعد ذلك عنهم ، ولكنه هنا ليس فاحش التكلف ، ولعله هو لا يعرف لماذا يبكى الشباب ؟ ولا يرى أنه إنما يبكى الشباب لأنه فى حاجة إلى البكاء ليس غير ، كما هو يشكو العشق لأنه فى حاجة إلى الشكوى ليس غير . ولعل من أوضح الأدلة على صدق الشاعر فى هذه القصيدة أو فى القسم الأول منها أنه قد نسى أو كاد ينسى ممدوحه ، واندفع فى تفكيره وحزنه وغنائه لهذا التفكير والحزن حتى إذا قضى من ذلك أربه أو كاد ، ذكر أنه ينشئ قصيدة فى المدح والثناء ، لا فى الحزن والغناء ، فاقتضب التفكير والتعبير اقتضابا ، ولم يلتمس تخلصاً إلى المدح ؛ لأنه فارغ البال للتكلف والاحتيال ، فلجأ إلى أمّا وقال :

أمَّا بَنُو أَوْسِ بنِ مَعْنِ بن الرِضَى

فأَعَزُّ من تُحْدَى إليــه الأيْنُقُ

ويمضى الشاعر فى مدحه لبنى أوس هؤلاء مبالغاً كدأبه مردداً ما قال الناس فى المدح ، ثم يخلص إلى محمد ممدوحه فيصفه بما لا يغنى ، ولكنى أحب أن تقف عند هذا البيت :

لم يَخلقِ الرَّحمنُ مِثْــلَ مُحَمَّدٍ

أحَــدًا وظنّى أنه لا يَخْلُقُ

لترى ما فيــه من المبالغة الفاحشة التى لا تصدر عن الفن الخالص أكثر مما تصدر عن فساد الرأى الدينى عند الفتى ، وتأثره بهذه القرمطية التى تبيح للناس أو لبعض الناس على الأقل من الرأى والقول والعمل ما لم يكن يستباح .

فنحن بإزاء قصيدة لها خطرها فى تصوير نفس المتنبي حين كان يودع الصبا و يستقبل الشباب . هى نفس حزينة معنّاة مؤرقة لأن لها همًّا بعيداً ، ولأنها قد أخذت تفكر فى الناس وفى نفسها ، وتستنبط من هذا التفكير أموراً لا تسر ولا ترضى ، وما زال الفتى قرمطيا ماضيا فى قرمطيته . وما زال الفتى معتمداً فى فنه على المبالغة والطباق .

فلندع هذه القصيدة ، ولننتقل إلى قصيدة أخرى يظهر أنها قيلت بعد هذه القصيدة بزمن مَّا ، ولكنها قيلت حين كان المتنبى متنقلاً فى شمال الشام ، وهى هذه السينية التى مدح بها الشاعر محمد بن زريق الطرسوسى والتى بذل فيها الفتى كثيراً من الجهد وقال فيها كثيراً من الخطل . فلم ينل عليها فيما يقول ياقوت[1] إلا عشرة دراهم ، ثم شفع له شافع فنال عشرة دراهم أخرى . وما أرى إلا أنه قد زاد فى الشعر حين زيد فى العطاء . فقال الأبيات الدالية التى نجدها فى الديوان والتى يمدح فيها ابن زريق أيضاً .

فاقرأ هذه الأبيات التى قدمها الشاعر بين يدى المدح لترى التكلف فى أبشع صوره ، والتعمُّل فى أشنع مظاهره ، ولترى كيف ينتهى الشاعر الفتى أحياناً من السخف إلى ما لا يطاق :

هذِى بَرَزْتِ لنا فهجتِ رَسِيسا
ثمَّ انثنَيْتِ وما شَفَيتِ نَسِيسا
وجَعَلْتِ حَظِّى منكِ حَظِّى فى الكَرَى
وتَرَكْتِنِى للفرْقَدَيْنِ جَلِيسا

---

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٠٤

قَطَّعتِ ذَيَّاكِ الخُمارَ بِسَكْرَةٍ
وأَدَرتِ من خَمْرِ الفِراقِ كُئُوسا

فالكلام إلى هنا فارغ ولكنه محتمل آخر الأمر ، فإذا أردت سخف الأطفال . فانظر إلى قوله :

إن كُنتِ ظاعِنةً فإنَّ مَدامعى
تَكفِى مَزادَكُمُ وتُروِى العِيسا

أترى إلى هذه الدموع التى يسفحها المتنبى ! فإذا هى من الغزارة بحيث يستطيع القوم أن يأخذوا منها ما يملأ مزادهم ليشربوا اثناء السفر ، وما يكفى لرى الابل اثناء السفر أيضاً .

ولكن المتنبى لم يسأل نفسه أتصلح دموعه لشرب صاحبته الحسناء ؟ أهى من العذوبة بحيث تلائم هذا الجسم الغضَّ البضَّ ، وتبعث فيه الجمال والحياة ؟ على أن ظن المتنبى بصاحبته ليس حسناً . فانظر إلى قوله :

حاشَى لمِثلِكِ أَن تكُونَ بَخِيلَةً
ولمِثلِ وَجهِكِ أَن يكون عَبُوسا
ولمِثلِ وَصْلِكِ أن يكونَ مُمنَّعاً
ولمِثل نَيلِكِ أن يكونَ خَسِيساً

ولست أدرى بأى امرأة أراد المتنبى أن يشبِّب فى هذين البيتين ، وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء ؛ فالمرأة التى ترتفع عن البخل ، ويرتفع وصلها عن التمنع ، ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها . ولكن المتنبى لا يقف عند مثل هذا التفكير ، بل لا يكره أن ينقض هذين البيتين . فيصف صاحبته بالدل الذى يمنعها من أن تتكلم ، والخفَر الذى يمنعها أن تميس فيقول :

خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِى وبَيْنَ عَوَاذِلى
حَرْباً وغَادَرَتِ الفُؤَادَ وَطِيسا

بَيضاء يَمنَعُها تَكَلَّمَ دَلُّها
تِيهْاً ويمنَعُها الحياءُ تَميسا

فهى أرفع من البخل ، ووصلها أرفع من الامتناع ، ولكنها مع ذلك من الدل والتيه ، ومن الخفر والحياء بحيث لا تستطيع أن تتكلم ، ولا أن تميس . فهى بخيلة كريمة ، وهى ممنعة مبتذلة ، وهى حيية وقحة . وقد وجد الشاعر عندها آخر الأمر دواءه من كل داء ، فأعرض عن الأطباء وهانت عليه صفات زعيمهم العظيم :

لمَّــا وَجَدتُ دَوَاءَ دَائى عِنــدَها

هانَتْ علىَّ صِــفاتُ جالِينُوسا

ويظهر أن هـذه الفتاة التى لا يكره المتنبى أن يرويها بدموعه والتى جمعت النقائض من صفات النساء قد شـغلت فتانا حقا ، فأنسته التخلص إلى الممدوح . وإذا هو يقتضب الـكلام اقتضاباً ، ويهجم على ممدوحه هجوماً لا رفق فيـه ولا ظرف . فيقول :

أَبقى زُرَيقٌ للثُغُورِ مُحَمَّداً

أَبقى نفيسٌ للنَفِيس نَفِيســا

فانظر إلى هذه النفنفة ، أو إلى هذه الفسفسة ، أو إلى هذه النسنسة التى تأتى من تـكرار النفيس ثلاث مرات فى شطر واحد ، واعذر محمد بن زريق إذا ضاق بصاحبه المتنبى أولاً ، وبهذا التـكرار ثانياً ، وبما سيأتى من السخف ثالثاً . فلم يعط الفتى إلا عشرة دراهم ولم يزده إلا بعد أن شفع إليه الشافعون وزاد المتنبى فى المدح .

ولـكن المهم من هذه القصـيدة هى هذه الأبيات التى تظهر المبالغة القرمطية فيها أبشع مظهر ، لا من الناحية الدينية

وحدها ، بل من الناحية الفنية أيضاً .

فالمبالغة حسنة فى الشعر بشرط أن تكون معقولة يسيغها الذوق . فإذا تجاوزت هـذا الحد كانت سخفاً أو هجاء ، وكان من حق الممدوح أن يظن أن مادحه يسخر منه ويستهزئ به ، ولـكن محمد بن زريق كان لحسن حظ المتنبى أجهلَ من هذا كله فيما يقول الرواة .

بَشَرٌ تصـوَّرَ غايةً فى آيةٍ
تنفى الظُّنونَ وتفسِـــدُ التَّقْييسا

وبه يُضَنُّ علَى البَريَّةِ لا بها
وعليهِ منهـا لا عليها يُوسَى

لو كانَ ذو القرْنينِ أعملَ رأْيَهُ
لمَّا أتى الظُّلُماتِ صِرْنَ شُمُوسا

أو كانَ صادَفَ رأسَ عازَرَ سيفُهُ
فى يومِ معرَكةٍ لأَعْيا عيسَى

أو كانَ لُجُّ البحرِ مِثْلَ يَمينِه
ما انشَـقَّ حتَّى جازَ فيهِ موسى

أو كانَ للنِيران ضَــوءُ جَبينهِ
عُبِدَتْ فكانَ العالَمُونَ مَجوسا

وما أظن هــذه الأبيات تحتاج إلى شرح أو تعليق لنستخرج منها إغراق المتنبى فى المبالغـة وإسرافه فى تجاوز الحدود الدينية الذى جاءه من قرمطيته . وأحسبه حين مدح ابن زريق قد ظن أنه كان يمدح أبا الفضل الـكوفى ، ذلك الذى جعله فى صباه إلهاً يجل عن أن يرى فى يقظة أو منام .

ويظهر أن آخر شـعر المتنبى فى شمال الشام ، أو من آخره على أقل تقدير ، قصيدته الميمية التى مدح بها سيف الدولة سـنة إحدى وعشرين وثلاثمائة حين أوقع بعمرو ابن حابس و بنى ضبة فى رأس العين كما يقول الديوان .

وبعض الناس يفترض أن المتنبى قد ذهب إلى أوساط الشام ثم عاد إلى شمالها قبل الـكارثة ، وفى زيارته الثانيـة للشمال قال هذه القصيدة ، وليس فى الديوان ولا فيما بين أيدينا من أقوال الرواة ما يدل على أن الفتى بعـد أن فارق شمال الشام عاد إليه قبل خروجه من السجن .

وأنا أعتقد أنه قال هذه القصيدة فى زيارته الأولى للشمال

السورى ، ولعله لما لم يستطع أن ينشدها للأمير الفتى ولم يظفر عليها بجائزة استيأس من الشمال حقا ، وكان هذا اليأس باعثا له على الأيغال فى الشام والانتقال من ملك العباسيين إلى ملك الأخشيديين . وكان سيف الدولة فى مثل سن المتنبى وُلد فى نفس السنة التى ولد فيها الشاعر ، وكان قد أظهر نجابة ونباهة شأن ، وأبلى فى هذه الموقعة بلاء حسناً ، فلا يبعد أن يكون المتنبى قد طمع فى أن يجد من التقرب إليه والاتصال به ما يرفع شأنه ويقرّبه من أمله البعيد . فلما لم يظفر من ذلك بما كان يرجو استبدل أرضاً بأرض ، وقوماً بقوم .

وكان المتنبى فى التاسعة عشرة من عمره حين قال هذه القصيدة . وقد قدمت لك أنه ينبئنا بأنه مدح الحسين بن إسحاق التنوخى ولم تجاوز سنه العشرين . وإذن فقد كان فى اللاذقية فى أواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وأثناء سنة اثنتين وعشرين ، ثم غاب عنها ، ثم رجع إليها فى نفس هذه السنة أو فى أوائل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وهى السنة التى نكب فيها واضطر إلى السجن فيما نرى .

وليس فى قصيدته لسيف الدولة شىء يستحق العناية إلا هذا البيت الذى يدل على أن الفتى كان فى هذه القصيدة كما كان فى غيرها شديد التهاون فى دينه ؛ يتحدث عنه فى غير عناية ، ولا رعاية ، ولا حرج :

إنْ كانَ مِثْلُكَ كانَ أَو هُوَ كائنٌ
فبرِئتُ حِينئذٍ مِنَ الإِسلامِ

٨

ويجب أن نمر مراً سريعاً بمقطوعات ثلاث قالها المتنبي في طرابلس بعد أن فارق شمال الشام ، وليس من اليسير أن نعلم أقالها قبل أن يزور اللاذقية ويقيم بها . أم قالها بعد ذلك ؟ وأكاد أرجح أنه استقر في اللاذقية أول الأمر ، وأطال الإقامة فيها لما وجد من بر التنوخيين به وإصفائهم له بالمعروف . ولهذه المودة التي نشأت بينه وبينهم ، فحملته على أن يكثر فيهم ما قال من الشعر ، ولعلها بعثت في نفسه آمالاً إن لم يصرح بها ، فقد أشار إليها كما سترى . ثم من اللاذقية أخذ ينتقل في مدن الشام وبيئاتها المختلفة يميناً وشمالاً . فزار حمص وبعلبك وطرابلس ، ولعله زار دمشق . وانتهى بعد ذلك إلى طبرية فأقام فيها حيناً ، ثم لم يرض عن أهلها فعاد إلى اللاذقية وإلى أصدقائه التنوخيين .

وينبغي أن نلاحظ هنا أن المتنبي حين ترك شمال الشام طرق أرضاً جديدة ، فيها سلطان سياسي جديد لم يعرفه

ولم يخضع له من قبل . فقد خضع فى العراق للسلطان العباسى ، وخضع فى شمال الشام لسلطان مضطرب بين العباسيين والاخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه من حين إلى حين ، ومضطرب كذلك لهذه الغارات التى كانت متصلة بين المسلمين والروم على الحدود . ثم مضطرب آخر الأمر لهذا الطموح الذى كان يملأ نفوس الأمراء المتفرقين فى بادية سوريا الشمالية وحاضرتها ، والذين كانوا بحكم هذا الطموح ينزعون إلى السيادة والملك ، ويترددون بين السلطان العراقى والمصرى ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف أقليمهم المختلطة المضطربة .

ولم يجد المتنبى لنفسه أملاً ولا مطمعاً فى هذا الإقليم المضطرب الذى اشتدت به عناية السلطانين اللذين كانا يتنازعان القوة فى ذلك الوقت : سلطان بغداد ، وسلطان الفسطاط ، والذى كانت تشغله غارات الروم ، والذى استيقظت فيه الأثرة الفردية والمنافسات بين القبائل البادية من العدنانية والقحطانية . فترك هذا الإقليم وأبعد فى السفر حتى انتهى إلى ملك الأخشيديين فأقام فيه ما أقام . ثم انتهى إلى الكارثة .

والحق أن هذا الشعر القليل الذى قاله فى طرابلس ليس خليقاً بشىء من العناية ، لولا أمران اثنان : أحدهما أنه يدلنا على أن المتنبى كان فى طرابلس هادئاً مطمئن النفس ، فارغاً لصغائر الأمور التى لا يفرغ لها الإنسان ، إلا حين ترفِّه الظروف عليه بعض الشىء . وكأن شهرة المتنبى كانت قد بدأت تظهر وتشيع . فهو لا يأتى طرابلس كاسباً ملتمساً للرزق فيما يظهر ، وإنما يأتيها زائراً ويلقى من بعض أهلها ضيافة لا تخلو من عناية وبر وترف .

والأمر الثانى : أنا لا نجد المتنبى فى هذا الشعر الذى قاله فى طرابلس فارغاً لصغائر الأمور فحسب ؛ بل لصغائر الفن وسخفه أيضاً ، ولهذه التكاليف التى يخاطر بها الشعراء من أصحاب البديع ، ليظهروا براعتهم اللفظية ومهارتهم فى النظم .

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين اللذين يتكلف فيهما المتنبى ويكلف سامعه وقارئه شططاً ، لأنه لا يزيد فيهما على نظم الألفاظ ، كما سيغلو فى نظم الأفعال بين يدى سيف الدولة بعد ذلك بزمن طويل :

دانٍ بَعِيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ
أغَرَّ حُلوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ
نَدٍ أبِيٍّ غَرٍ وافٍ أخِى ثِقَةٍ
جَعْدٍ سَرِىٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

والظاهر هو أن أبا الطيب لما بلغ طرابلس مدح صاحبه عبيد الله بن خلكان هذا بهذه السينية التى لا تغنى شيئاً . وكأن الرجل أعجب بها فأحسن ضيافة الشاعر وأهدى إليه طرفتين من هذه الطرف التى يظهر أن السوريين يحسنون اصطناعها و إهداءها من قديم .

الأولى : هدية ، كما يقول الديوان ، فيها سمك من سكر ولوز فى عسل ، والثانية : جامة فيها حلوى .

فأما الهدية الأولى فقد سحرت المتنبى و بهرته ، و إذا هو يتغنى بمدح صاحبه و يقدمه على حاتم الطائى ، ويجعله مثلا حيًّا للكرم والجود ، ويقول فى وصف هذه الهدية هذا البيت الذى ما أشك فى أنه أرضى المتنبى ، وفتن عبيد الله ابن خلكان :

أَقَلُّ ما فى أَقلِّها سَمَكٌ

يَسْبَحُ فى بِرِكَةٍ من العَسَلِ

وأما الأخرى فلم تكن أقل إرضاء المتنبى من الأولى ، ويظهر أن الفتى الكوفى كان (حلويا يحب الحلوى) فقد رد الجامة إلى صاحبها بعد أن كتب عليها بالزعفران هذه الأبيات :

أقصِرْ فلستَ بزائدِى وُدًّا

بلغَ المَدَى وتجاوزَ الحَدَّا

أَرْسَلْتَها مملوءَةً كَرَماً

فَرَدَدْتها مملوءَةً حَمْدا

جاءَتْكَ تَطْفَحُ وَهىَ فارغةٌ

مثْنَى بهِ وَتظُنُّها فَرْدا

تَأْبَى خَلائِقُكَ التى شَرُفَتْ

أَلَّا تحِنَّ وتَذْكُرَ العَهْدا

لو كُنتَ عَصْرًا مُنْبِتاً زَهَرًا

كُنْتَ الرَبيعَ وكانَتِ الوَرْدا

فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى فى وصف السكر واللوز والعسل ، وفى الشكر على علبة حلوى . ومن حق المتنبى أن يستريح وأن يلهو بالصغائر ، ويرفِّه بها على نفسه من هذه الهموم الثقال التى يطوف بها فى الآفاق ، ويفكر فيها آناء الليل وأطراف النهار ، ولكن راحة المتنبى وفراغه ، ودعابة المتنبى ومجونه ، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح ، كما سترى فى غير هذا الموضع من الحديث . فلم يكن المتنبى حلو الروح ولا خفيف الظل ، ولا جذابا ، وإنما كان مرًّا غليظ الذوق فى أوقات الدعة والفراغ .

فلندعه غارقا فى بركته العسلية ، أو عاطفا عليها يصطاد سمك السكر واللوز ، ولنذهب إلى اللاذقية ، لننظر فى شيء من هذا الشعر الكثير الذى قاله هناك للتنوخيين .

٩

وشعر المتنبى فى التنوخيين كثير يعظم حظه من الجودة ، وينتهى أحياناً إلى الروعة ، وفيه البشائر بنضج الشاعر ، والطلائع المنبئة بنبوغه ، وفيه على ذلك ما يدل على أن حياته مع التنوخيين قد أثارت فى نفسه آمالا وأمانى ، وخيلت إليه أنه قريب من غايته . وكانت حياة راضية على كل حال .

وقد ذكر فى شعره ثلاثة من التنوخيين :

فأما أولهما وهو محمد بن اسحاق التنوخى فلم يذكره إلا راثياً له باكياً أو متباكياً ومبكياً عليه ، كأنه لم يعرفه ، ولم تتصل المودة بينه وبينه ، وإنما مات قبل أن تطول إقامة المتنبى فى اللاذقية ، وقد رثاه بالرائية التى مطلعها :

إنّى لأعْلَمُ واللبيبُ خَبيرُ
أَنّ الحَياةَ وإن حَرَصتُ غُرُورُ

وهى قصيدة عادية لا خطر لها ولا غناء فيها ، ولكنها أرضت أهل الميت فاستزادوه ، فزادهم على الوزن والقافية

هـذه الأبيات التى يقول فى أولها :

غاضت أنامِـلُه وهُنَّ بُحُورُ

وخَبَتْ مَكَائِدُهُ وهُنَّ سَعِيرُ

وكأن أسرة أخرى كانت تنافس التنوخيين فى اللاذقية ، فأشاعت أن أبناء عم الميت لم يحزنوا عليه ، وأنهم قد شمتوا بموته فلجـؤوا إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى عنهم هذه الشماتة ، فقال على الوزن والقافية الأبيات التى أولها :

أَلِآلِ إبراهِيمَ بعـدَ مُحَمَّدٍ

إلاَّ حَنِـينٌ دَائِمٌ وزَفِيرُ

وقد استزادوه فى هـذا المعنى كما استزادوه فى الرثاء ، وكأنه قد استنفد جهده فى هذا الوزن وهذه القافية ، فعدل إلى وزن آخر وقافية أخرى ، وقال هـذه الأبيات التى لا أقف منها إلا عند هذا البيت :

أَلَيسَ عَجيباً أَنَّ بين بَنِى أَبٍ

لِنَجْلِ يهوديٍّ تَدِبُّ العَقارِبُ

وإنما أقف عند هذا البيت لأضع بازائه بيتاً آخر قاله

فى قصيدته التى استعطف بها والى حمص بعد أن سجن وهو قوله :

فلا تَسمعَنَّ مِنَ الكاشِحِين
ولا تعبأَنَّ بمَحْكِ اليهُودِ

فهل أشار المتنبى إلى رجل واحد فى هذين البيتين ؟ ومن عسى أن يكون هذا اليهودى ؟ وهل لصلة المتنبى بالتنوخيين الذين كان ينافسهم هذا اليهودى أثر فى السعاية به حتى ألقى فى السجن ، أو أثر فى النكاية به حتى طالت إقامته فى السجن ، وما بال المتنبى بعد أن خرج من سجنه لم يعد إلى أصدقائه التنوخيين ، ولم يذكرهم فى شعره ، وهل بين هذا اليهودى الذى يذكره المتنبى فى هذين البيتين ، واليهودى الذى كان يحكم دمشق حين لجأ اليها المتنبى بعد أن فارق سيف الدولة صلة . أم هل هو رجل واحد ؟

كل هذه مسائل خليقة بالتفكير والعناية ، لولا أن النصوص التى بين أيدينا لا تعيننا على أن نجد لها جوابا مقنعاً . فلنحتفظ بها فقد تنفعنا بعد حين .

وقد مدح المتنبى رجلين من التنوخيين أحدهما الحسين

ابن اسحاق التنوخى ومدحه بقصائد ثلاث مطلع أولاها قوله :

هوَ البَينُ حتى ما تأَنَّى الحَزائِقُ

ويا قَلبُ حتى أَنتَ مِمَّن أُفارقُ

ومطلع الثانية :

أَتُنكِرُ يا ابنَ إسحقِ إخائى

وتَحسبُ ماءَ غيرى من إنائى

وهى التى ذكر فيها سنَّه ، وكأنه أرسلها إلى ممدوحه من بعيد . وأقل ما تصور هذه القصيدة أن أمر الشاب قد عظم فأصبح له حساد ومنافسون ، وأن الشاعر قد وثق بنفسه واطمأن إلى فحولته .

ومَطلع الثالثة قوله :

مَلامُ النوَى فى ظُلمِها غايةُ الظُلمِ

لَعلَّ بها مثلَ الذى بى من السُقْمِ

ومدح علىّ بن ابراهيم بن اسحاق التنوخى بثلاث قصائد أيضاً يقول فى أولاها :

أُحادُ أم سُداسٌ فى أُحادِ

لُيَيْلَتُنا المنُوطةُ بالتنادى

ويقول فى الثانية :

مُلِثَّ القطرِ أَعْطِشْها رُبوعا

وإلاَّ فاسْقِها السُّمَّ النَقِيعا

ويقول فى الثالثة :

أحَقٌّ عاف بدَمعِكَ الهِمَمُ

أحْدَثُ شىءٍ عهداً بها القِدَمُ

وقد قال هذه القصيدة بعد عودته من طبرية ، وكأن مودة خاصة كانت تجمع بينه وبين ممدوحه هذا . فقد كانت بينهما منادمة يصورها الشاعر فى مقطوعتين لم نحفل بهما لقلة خطرهما .

ولا بد من الوقوف عند بعض هذا الشعر لنتبين مقدار نضج الشاعر فى فنه من جهة ومقدار دنوّه من الثورة والانفجار من جهة أخرى .

ولندع شعره فى الحسين بن اسحاق التنوخى لا لأنه

أهون من أن نقف عنده ، ولا لأنه يشبه ما قال المتنبى من الشعر قبل وصوله إلى اللاذقية ؛ فإن مدحه للحسين بن اسحاق يمتاز بأشياء ، يخيل إلى أنها طريفة مستحدثة ، و إن كنا نلمح أصولها فى الشعر السابق ، ولكنها فى هذا الشعر كثيرة شائقة توشك أن تكون القوام الفنى له ، وهذه الخصال هى جزالة اللفظ ورصانته ، وصحة المعنى واستقامته ، واعتدال الأسلوب وحسن انسجامه . إلا أبياتاً يضطرب فيها الشاعر هنا وهناك فى اللفظ وحده أو فى المعنى وحده ، أو فى اللفظ والمعنى جميعاً . وأنت واجد لذلك نماذج فى ميميته التى يمدح بها الحسين ، ولا سيما القسم الأخير منها ، وأنت واجد فى هذا الشعر كله إيثاراً ظاهراً للغة البادية ، واختياراً ظاهراً للألفاظ الضخمة التى تملأ الفم والأذن جميعاً ، ولا سيما فى القافية التى يمدح بها الحسين .

وأنا مع ذلك أدع هذه القصائد الثلاث ، لأنى أكاد أعتقد أن المتنبى كان أشد ميلاً إلى على بن ابراهيم وأصدق له حباً وأعظم به ثقة ، وهو من أجل ذلك صادق اللهجة حين يتحدث إليه ، لا يكاد يخفى عليه ميوله وأهواءه ، وكأنه كان ينتظر

منه معونة و إمداداً ، ومهما يكن من شيء فلست أستبعد أن يكون هؤلاء التنوخيون ، وعليّ منهم خاصة ، قد شجعوا المتنبي سرا على ما كان يحاول من الوثوب . وآية ذلك عندى أنه لم يعد إليهم بعد النكبة ، ولم يذكرهم فى شعره ، إما إشفاقا عليهم و إما لأنهم هم أنفسهم قد أشفقوا منه وخافوه .

واقرأ معى داليته التى يمدح بها على بن الحسين ولا تطل الوقوف عند مطلعها الغامض البغيض الذى أنكره القدماء ورأوا فيه إلغازا وخطأ فى الحساب و بعداً عن الشعر (١) .

أُحادٌ أم سُــداسٌ فى أُحادِ
لُيَيْلَتُنَا المَنُــــوطةُ بالتَنادِى (٢)

لا تقف عند هذا البيت السخيف الذى تجد مثله كثيراً فى أجمل شعر المتنبي وأروعه ، بل تجاوزه إلى ما قاله الشاعر

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٧٨ (طبع العرفان بصيدا) ، ويتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ١٢٤ (طبع اسماعيل الصاوى)

(٢) انظر : Massignon. Mutanabbi devant le siècle Ismaëlien de l'Islam. فى Mémoires de l'Institut Francais de Damas. Beyrouth 1936.

فانه يفسر هذا البيت بالبيت الذى يليه ويجعل العدد رمزاً لبنات نعش وهو رأى أقل ما يوصف به أنه طريف .

بعـده ، فسترى أنك لا تقرأ لفتى ناشىء يعالج الفن على غير علم به ولا قدرة عليه ، و إنما أنت بازاء شاعر ناضج قد تمت له أداة الشعر واستكمل حظه من القـدرة على تصريف المعانى والألفاظ . وأنت كذلك بإزاء شاعر قد نفد صبره أو كاد . قد سئم السكون ورغب فى الحركة ، وقد ضاق بالهدوء وتحرق إلى الثورة ، وقد عجز حتى عن أن يخفى سره ، فهو يبادى الناس به فى غير تحفظ ، ولا تحرج ، ولا حذر :

كأَنَّ بنَاتِ نعْشٍ فى دُجاها
خَرَائِدُ سافراتٌ فى حِـدَادِ

فما رأيك فى هـذا التشبيه الرائع البديع الذى يخلبك بلفظه ومعناه . ولـكن الشاعر ليس فارغ البال ليصف رهبة الليل ، وجمال النجوم ، و إنما هو مثقل بهمومه ، معجل عن التفكير فى جمال الطبيعة ، وعن تصوير هذا الجمال ، إلى التفكير فى معاقرة المنايا .

أُفـكِّرُ فى مُعـاقرَةِ المنَايَا
وقَوْدِ الخيـلِ مُشرِفةَ الهَوادى

زَعيمٌ للقنـــا الخَطِّىِّ عَزْمى

بِسَفكِ دَمِ الحواضِرِ والبَوادى

إلى كم ذا التَخلُّفُ والتَــوانى

وكم هــذا التَمادِى فى التمادِى

وشَغْلُ النفسِ عن طَلَبِ المَعالى

بِبَيْعِ الشِعْرِ فى سُوقِ الكَساد

وما ماضى الشَــباب بِمُسْتَرَدٍّ

ولا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُســتَعادِ

متى لَحظَتْ بياضَ الشَيبِ عَيْنى

فقد وَجَدَتْهُ منها فى السَــوادِ

متى ما ازدَدْتُ من بَعدِ التَناهى

فقــد وَقَعَ انتِقاصى فى ازدِيادى

فهذا الشعر يعرب عن نفسه ، و يعلن إلى قارئه أو سامعه ما فيه من جمال وروعة ، وما فيه من قوة وحزم ، وما فيه من تحرق إلى الخروج من هذه الحال التى ضاق بها الشاعر أشـد الضيق ، كما أنه يعلن إلى قارئه أو سامعه أن عقل

صاحبه قد نضج و بلغ أشده ، وأصبح قادراً لا على التفكير المستقيم فحسب ، بل على استخراج المعانى الدقيقة وتصويرها فى أبرع اللفظ وأرقاه .

ولا أمضى فى تحليل ما يأتى بعد ذلك من المدح ، وإن كان خليقاً بالعناية والتحليل ، وإنما أدع هذه القصيدة لأنتقل إلى قصيدة أخرى هى عندى أروع ما قال الشاعر فى المديح أثناء هذا الطور .

هى أروع هذا الشعر ، لأنها جمعت إلى الخصال التى لاحظت أن الشاعر قد استكملها فى شعره الذى قاله فى اللاذقية ، خصلتين خليقتين بالتفكير :

إحداهما سياسية ؛ فقد صرح لنا الشاعر فى هذه القصيدة بمذهبه السياسى . فإذا هو أعم وأشمل من القرمطية أو التشيع ، وإذا القرمطية أو التشيع عند المتنبى وسيلة إلى تحقيق هذا المذهب السياسى الخطير : وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم ملكهم وسلطانهم ، وأن يرد غير العرب من الخدم والرقيق إلى طورهم الذى كانوا فيه حين كان الملك عربياً صحيحاً .

والمتنبى فى هذه القصيدة يذكرنا بشاعر قرشى قديم

اشترك فى الفتن الإسلامية ، وجاهد مع الزبيريين حتى انهزموا ثم استخفى دهراً ، ثم انتهى أمره إلى الاستئمان والاذعان لبنى أمية ، وهو عبيد الله بن قيس الرقيات الذى لم يكن يعنيه من هذه الفتن التى اصطلى نارها إلا أن تجتمع كلمة قريش ، وأن يعود إليها ملكها قويا متينا . ولذلك لم يأنف أن يثوب إلى بنى أمية ، وأن يمدحهم و ينعم بجوار أمير من أمرائهم ، هو عبد العزيز بن مروان . كذلك المتنبى جاهد بلسانه وعرض نفسه للخطر . ولعله جاهد بسيفه ونفسه ، ثم انتهى أمره إلى السجن . فلما خرج منه أنفق بعض الدهر مشرداً بائساً ، ثم لم يلبث أن تعزى عن هذا كله حين خيل إليه أنه وجد أميراً عربياً يحيي الأمل ، ويرد إلى النفوس شيئاً من الرضى والثقة .

واقرأ هذه الأبيات التى تصور هذا المذهب السياسى للمتنبى أجمل تصوير :

أَحَقُّ عافٍ بدَمعِكَ الهِمَمُ

أَحْدَثُ شيءٍ عَهداً بها القِدَمُ

وإنَّما النــــاسُ بالمُلوكِ وما

تُفلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ

لا أَدَبٌ عِنــدَهمْ ولا حسَبٌ

ولا عُهــودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمُ

بِكُلِّ أرضٍ وَطِئتُها أُمَمٌ

تُرْعَى بِعَبْدٍ كأنّها غَـنَمُ

يَسْتَخشِنُ الخزَّ حينَ يَلمِسُهُ

وكانَ يُبرَى بِظُفْرِهِ القَـلَمُ

وقد قال المتنبى هذه القصيدة بعد أن ذهب إلى طبرية فأقام فيها ، ثم سخط فعاد إلى اللاذقية ، وسخطه ظاهر فى هذه الأبيات .

ولكن إقامة أبى الطيب فى طبرية قد كشفت عن ناحية من نواحى ملكته الشعرية ، لم تظهر واضحة فى شعره السابق ، وهى قدرته على الوصف و براعته فى تصوير الطبيعة .

وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة التى يصف بها البحيرة :

لولاكَ لم أَترُكِ البُحيرَةَ والـ
غورُ دَفِيءٌ وماؤُها شَبِمُ

والمَوْجُ مِثلُ الفُحولِ مُزبدةً
تَهْدِرُ فيها وما بها قَطَمُ

والطيرُ فوقَ الحَبابِ تحسَبها
فُرسانَ بُلْقٍ تَخُونُها اللُّجُمُ

كأَنَّها والرياحُ تَضْرِبُها
جَيْشَا وَغًى: هازِمٌ ومُنهزِمُ

كأَنَّها في نَهارِها قَمَرٌ
حَفَّ بِهِ من جِنانِها ظُلَمُ

ناعِمَةُ الجسمِ لا عِظامَ لها
لها بَنَاتٌ وما لها رَحِمُ

يُبْقَرُ عَنْهُنَّ بَطْنُها أَبداً
وما تَشَكَّى وما يَسِيلُ دَمُ

تَغَنَّتِ الطيرُ في جوانِبِها
وَجادَتِ الأَرضَ حَولَها الدِّيَمُ

فَهْىَ كماوِيَّةٍ مُطَوَّقَةٍ

جُرِّدَ عنها غِشاؤها الأَدَمُ

يشِينُها جَريُها عَلَى بَلَدٍ

تَشِينُهُ الأدعياءُ والقَزَمُ

كان المتنبى وهو يقول هذا الشعر الناضج قد أتم العشرين من عمره ، وأتم فى الوقت نفسه نضجه الفنى ونضج عواطفه الثائرة التى ستدفعه إلى الكارثة بعد قليل . وأنت قد لاحظت اضطرام نفسه ، فى كل ما قال من الشعر للتنوخيين ولاحظت أن مقامه فى طبرية بعد عشرته لهؤلاء العرب فى اللاذقية قد انتهى بهذا المرجل ، الذى كان يغلى فى صدره إلى الانفجار .

فلنترك هذا الفتى الشاعر الذى كان يعدو فى التفوق والنبوغ عدواً ، ولنعد إلى الفتى الثائر فنستعرض ما قال من الشعر الحاد العنيف الذى انتهى به إلى السجن فى حمص .

———

١٠

فنحن حين نقرأ القسم الأول من ديوان المتنبى قراءة ممعن مفكر، مضطرون إلى أن نلاحظ أن المتنبى، صبيا وشابا، كان يحيا لونين من الحياة مختلفين أشد الاختلاف فى أول الأمر. ثم غلب أحدهما على الآخر فامتزجا وانتهيا بالفتى إلى سجنه.

فأما اللون الأول من حياته، فهو هذا الذى رأيته فى أكثر ما قدمت إليك من هذا الحديث. هو حياة الشاعر العادى الذى يسلك سبيل أبى تمام والبحترى، وغيرهما من الشعراء المعروفين. وهى سبيل قوامها طلب الرقى الفنى، واتخاذ الفن وسيلة إلى الغنى والثروة، وإلى ارتفاع المكانة والاستمتاع باللذات، فقد سلك أبو الطيب هذه السبيل كما سلكها غيره. فقال الشعر فى صباه ناسباً وهاجياً ومادحاً. قاله للتمرين والتعلم فى أول الأمر. ثم قاله للكسب والارتزاق والتماس الشهرة بعد ذلك.

وقد رأيت كيف سلك طريقه هذه فى سرعة ما، ولكنها

على كل حال ليست سرعة فذة ولا ممتازة ، فقد نبغ الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين فى مثل السن التى نبغ فيها ، بل فى مثل هذه السن التى كان يحاول فيها التفوق والامتياز .

وأما اللون الثانى لحياة المتنبى فهو هذا اللون الأحمر القانى ، لون الثورة الدامية أو الغارقة فى الدم . وقد أحسست من كل ما قدمت فى هذا الحديث أن فتانا قد عرف السخط منذ عرف نفسه ، واستطاع أن يفكر فى أمره شيئاً .

فهو قد شك فى أمر أسرته وسأل نفسه ، ولعله سأل جدته عن أمه وأبيه . وهو قد أنكر من أمر هذه الأسرة أموراً لم ينبئنا بها ، بل اجتهد فى إخفائها علينا . وكان يظهر الضجر والضيق والغيظ إذا أحس أن المعاصرين له كانوا يعرفون منها قليلا أو كثيراً . وهو فى الوقت نفسه قد نشأ فى بيئة شيعية ساخطة تنتظر الفرج . واتصل ببيئة قرمطية هادمة للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع ، وهو قد تأثر بهاتين البيئتين ، فكان فى حياته الظاهرة شيعة علويا ما أقام فى العراق . وكان قوله للشعر وتأثره بما يتأثر به الشعراء ، ربما نمَّ على دخيلة نفسه ، فأظهر قرمطيته العقلية فى مدحه

لأبى الفضل الكوفى . وأظهر قرمطيته العملية فى هذه الأبيات الثلاثة التى قدمتها لك :

إلى أىِّ حِينٍ أَنْتَ فى زِىِّ مُحرِمِ
وَحَتَّى مَتَى فى شِقوَةٍ وَإلى كمِ
وَإلاّ تمُتْ تحتَ السُّيُوفِ مُكرَّمًا
تمُتْ وَتقاسِ الذُّلَّ غيرَ مُكرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقاً بالله وَثْبةَ ماجِدٍ
يرَى الموتَ فى الهَيْجاَ جَنَى النحلِ فى الفمِ

وقد رأيت أن جلاء القرامطة عن الكوفة وانهزامهم عن العراق ، وارتدادهم إلى البحرين قد حمل الغلام على أن يجلو هو أيضاً عن الكوفة لا إلى البحرين ، بل إلى الشام بعد أن مر ببغداد مروراً يسيرا . وأنا أعتقد أن الفتى أخفى قرمطيته بعد انهزام القرامطة . واعتقد كما قدمت أنه ذهب إلى الشام مغامرا ، وداعياً إلى المذهب القرمطى .

ولكنه تعلم الحذر والاحتياط . ومنذ وصوله إلى الشام يظهر انقسام نفسه بين هذين النوعين من الحياة : حياة خارجية

يجارى فيها الناس ويداريهم ، وحياة داخلية يبغض فيها الناس أشد البغض ، ويمقتهم أشنع المقت ، ويضمر لهم ضغينة لا حد لها ، وعداء لا هوادة فيه .

وكان المتنبى إذا أَلَمَّ بقوم من أهل البادية أو الحاضرة لم يظهرهم من دخيلة نفسه على شيء ، ولكنه مع ذلك ربما آنس من بعضهم ما يبعث فى نفسه شيئاً من الأمل فيلمح لهم تلميحاً شديد الغموض ببعض أمره ورأيه . ثم يرى من فتورهم أو قصورهم ما يرده إلى التحفظ والكتمان ، كالذى رأيت فى تلميحه لبعض الكلابيين بهاتين المقطوعتين :

إذا ما شَرِبْتَ الخمرَ صِرفاً مُهَنَّأً
شَرِبْنا الذى من مثلِهِ شربَ الكَرْمُ
ألا حَبَّذا قومٌ نَداماهُمُ القَنا
يُسَقُّونها ريًّا وساقيهِمُ العزْمُ

***

لِأَحبَّتى أَنْ يَملَئُوا
بالصافياتِ الأكوُبا

وعليهمُ أنْ يبذُلوا
وَعَلَىَّ أَنْ لا أَشرَبا
حتى تكونَ الباترا
تُ المُسمِعاتِ فأطرَبا

وكان المتنبي مبغضاً للخمر أشد البغض ، ممتنعاً عنها أشد الامتناع ؛ يرى أن الإِقبال عليها فضلاً عن معاقرتها لا يلائم ما يملأ نفسه من الأمل والجد — ويظهر هذا فى هاتين المقطوعتين . ويظهر فى مقطوعة أخرى قالها لصديق له يعرف بأبى ضبيس وهى :

أَلَذُّ من المُدامِ الخنْدَرِيسِ
وأحلَى من مُعاطاةِ الكؤُوس
معاطاةُ الصفائحِ والعوالى
وإقْحامى خميساً فى خَميس
فمَوتِى فى الوَغى عَيشى لأَنّى
رأيتُ العيشَ فى أَرَبِ النُفوسِ

ولو سُقِّيتُها بيَــدَىْ نَديمٍ
أُسَرُّ به لَـكانَ أبا ضَبِيسِ

ويظهر كذلك فى مقطوعتين أُخريين قالهما لعــلى بن إبراهيم التنوخى يقول فى أولاهما :

إذا ما الـكأْسُ أَرْعَشَتِ اليدَين
صَحَوْتُ فلم تَحُلْ بَيْنى وبَيْنى

ويقول فى الثانية :

مَرَتْكَ ابنَ إبرهيمَ صافيةُ الخَمْرِ
وَهُنِّئْتَها من شاربٍ مُسْكِرِ السُكْرِ

وقد احتفظ المتنبى بإعراضه عن الخمر واقتصاده فى اللذات حياته كلها . لم يخرج عن هذا التحرج إلا كارهاً ، كالذى كان بينه وبين صديق له حلف عليــه بالطلاق ليشربن ، فشرب وقال :

وأخٍ لنا بعَثَ الطَّلاقَ أَلِيَّةً
لَأُعَلِّلَنَّ بهــذِهِ الخرطومِ

فَجَعَلْتُ رَدِّى عِرْسَهُ كفَّارةً
مِن شُرْبِها وشَرِبْتُ غيرَ أَثيمِ

كان المتنبى إذن يلمح برأيه ولا يصرح به ما أقام فى شمال الشام ، وربما ظهرت آراؤه فى مدحه من حين إلى حين ، ولكنه فيما بينه و بين نفسه كان يستثمر هذه الآراء ويقويها وينضجها ، وكانت الحياة نفسها تعينه على ذلك وتدفعه إليه دفعاً فهذا الاضطراب الداخلى فى هذا الاقليم ، وهذه الأثرة التى تملأ نفوس الناس ولاسيما السادة والأشراف ، وهذا التنافس بين العباسيين والإخشيديين ، وهذا البخل الأسود الذى كان يلقاه كلما مدح أميراً أو شريفاً أو رجلاً من أوساط الناس . كل ذلك كان يصور له الحياة سوءاً كلها ، ويصور له تفوقه وامتيازه ، وارتفاع نفسه عن نفوس هؤلاء الطغام .

فلما انتهى الأمر به إلى مدح على الحمدانى ، وكان لدة له ، ومكافئاً له فى السن ، ولم يبلغ منه شيئاً . امتلأت نفسه ضغناً وحفيظة ، ولعله سأل نفسه فى هذا الوقت ما بال هذا الفتى الحدث يعظم شأنه ، ويرتفع أمره ، ويقود الجند ،

ويغير على البادية والحاضرة . وأنا فى هذه الحال من الخمول والضعة . لا أ كاد أبلغ ما أقيم به أودى ، مع أنى أبذل فى ذلك الجهد العنيف ، وما هو أقوم من الجهد العنيف ، فأمدح من أزدرى ، وأثنى على من أبغض ، وأدعو بطول البقاء وتأييد الملك لمن لو استطعت لسحقته سحقاً .

ولعل أبا سعيد المجيمرى لامه فى نحو هذا الوقت ، وحثه على أن يرحل بشعره إلى الملوك والأمراء وأشراف الناس . فلم يستطع أن يكتم ما كان يملأ نفسه من الضغن والحفيظة . فأجاب صاحبه بهذا الرجز المر الملتهب ، لأنه يصور نفساً مرة ملتهبة :

أبا سَعيدٍ جَنِّبِ العتابا

فرُبَّ راءٍ خَطَأً صَوابا

فإنَّهم قد أكثَرُوا الحُجَّابا

واستَوقَفُوا لرَدِّنا البوَّابا

وإنَّ حَدَّ الصارمِ القِرضابا

والذابلاتِ السُمْرَ والعِرابا

ترفَعُ فيما بينَنا الحِجابا

وعلى كل حال فقد ترك شمال الشام يائساً منه ومن أهله ، والتمس فى ملك الاخشيديين ما أعياه فى ملك العباسيين . وليس من شك فى أن مقامه فى اللاذقية قد قوى نفسه ، و بعث فى أمله حياة منعته من أن يبلغ من الحذر والاحتياط ما كان يبلغه من قبل .

وأنا أرجح أن هؤلاء التنوخيين الذين اتصل بهم كانوا يشعرون بعربيتهم ، وكانوا يرضون إن آل إليهم شىء من الحكم أو الجاه ، و يسخطون إن زال عنهم ذلك وانتقل إلى منافسيهم الذين أشرنا إليهم فى الفصل السابق . وكانوا من غير شك يتحدثون بما يشعرون به من رضى أو سخط ، وكان المتنبى يسمع منهم و يحفظ عنهم ، ولعله تحدث إليهم ملمحا أول الأمر ، ثم كاشفاً بعض الحجب عن نيته ، ثم راجعاً إلى الاحتياط . ولكن رحلته إلى طبرية قضت على كل حذر ، وأزالت عن نيته كل ستار ، فعاد إلى اللاذقية هائجاً مائجاً ، وثائراً مضطرباً ؛ لأنه رأى من أمر الأخشيديين وعمالهم ما أحفظه ، وظهر ذلك فى ميميته التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ظهوراً لا يحتمل شكا ولا جدالاً .

ومن يدرى ؟ لعل هؤلاء التنوخيين ، ولعل أحدهم علىّ بن إبراهيم خاصة ، قد أظهروا رضى عن ثورة المتنبى وتشجيعاً لها فى أحاديثهم أو فى صنيعهم مع المتنبى .

ولكن المحقق ما ينبئنا به الديوان من أن بعض الناس أشفقوا على الشاب من هذه الصراحة التى ظهرت فى مدحه للتنوخيين ، ومن هذه الأحاديث الملتهبة التى كان يلقيها من هنا وهناك فى غير تحفظ . ومن هؤلاء أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل الذى نصح للمتنبى — فيما يظهر — بالحذر والاحتياط ، فلم يسمع له وإنما أجابه بهذه الأبيات :

أبا عبدِ الإلٰهِ مُعاذُ إنِّى
خَفِىٌّ عنكَ فى الهَيْجَا مَقامى

ذَكَرْتَ جَسِيمَ ما طَلَبى وَإنَّا
نُخَاطِرُ فيه بالمُهَجِ الجِسامِ

أَمِثْلِى تأْخُذُ النَّكَباتُ مِنْهُ
ويَجْزَعُ مِنْ مُلاقاةِ الحِمامِ

ولو بَرَزَ الزَّمانُ إلىّ شَخْصًا
لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسامى

وما بَلَغَتْ مَشيئتَهَا اللَّيالى

ولا سارتْ وفى يَدِهَا زِمامى

إذا اُمتَلَأَتْ عُيُونُ الخيل مِنِّى

فَوَيْلٌ فِى التَّيقُّظِ وَالْمَنامِ

فى اللاذقية عرف المتنبى حسد الحساد وكيد الكائدين ، فقد ارتفع شأنه الفنى ، واستبق الناس إلى تضييفه و إيثاره بالخير أو إيثار أنفسهم بمدحه ، ولقى من أمن الحياة ولينها ما لم يلق فى شمال الشام .

قد ظهر المنافسون له ورأيت أن قومًا نافسوه عند التنوخيين ، وأن منهم من لم يتردد فى أن يصنع هجاء للحسين ابن إسحاق التنوخى ، ويضيفه إلى المتنبى فى غيبته ، ويضطر المتنبى إلى أن يدافع عن نفسه عند الحسين .

وفى اللاذقية وجد المتنبى لذة المودة وصداقة الأصدقاء : فهذا معاذ بن إسماعيل يشفق عليه وينصح له بالحذر . وهذا علىّ بن إبراهيم التنوخى يمنحه وده ، ولا يتمنى إلا أن يختص به نفسه ويتخذه نديمًا . ولكن آماله أبعد من هذا كله .

وقد أخذ الناس يلهجون به ويتهمونه فى نسبه وفى رأيه . فقال هـذه الأبيات التى أظنها قليلاً من كثير قد حذف :

أنا عَيْنُ ٱلْمُسَوَّدِ ٱلْجَحْجَاحِ
هَيَّجَتْنى كِلابُكُم بالنُّبَاحِ
أيَكُونُ الهِجانُ غَيْرَ هِجانٍ
أم يكونُ الصُّراحُ غيرَ صُراحِ
جهِلونى وإنْ عَمِرْتُ قليـلاً
نَسَبَتْنى لهم رُءوسُ الرِّماحِ

وكأن أعداء المتنبى وحساده قد مضوا فى النعى عليه . وألحُّوا فى التشهير به ، وظلوا يستحمقونه ، فدفعوه بذلك إلى الثورة دفعًا . تدل على هذا لاميّته التى أولها :

قفِا تَرَيا وَدْقى فهاتا المَخايِلُ
ولا تَخْشَيا خُلْفًا لِمَا أنا قائلُ

والتى يقول فيها :

تُحَقِّرُ عندى هِمَّتى كلَّ مَطْلَبٍ
ويَقْصُرُ فى عَيْنِى المَدَى المتطَاوِلُ
وما زِلتُ طَوْدًا لا تزولُ مَناكِبى
إلى أنْ بدَتْ للضَّيْمِ فىَّ زَلازِلُ
فقلقَلتُ بالهمِّ الذى قَلْقَلَ الحَشا
قلاقِلَ عِيسٍ كلُّهُنَّ قَلاقِلُ
إذا اللَيلُ وارانا أرَتْنا خِفَافُهُا
بقَدحِ الحَصَى ما لا تُرينا المَشاعِلُ

فهو إذن قد ارتحل عن اللاذقية ، مغاضباً فيما أظن ، منذراً بهذه الأبيات الخطرة :

ألَا ليسَتِ الحاجاتُ إلَّا نُفُوسَكُمْ
وليسَ لنا إلَّا السُيُوفَ وسائِلُ
فما وَرَدَتْ رُوحَ امرِىءٍ رُوحُهُ له
ولا صَدَرَتْ عن باخلٍ وهو باخلُ
غَثاثَةُ عَيْشى أنْ تَغَثَّ كَرَامتى
وليس بِغَثٍّ أن تَغَثَّ المآكلُ

وكان المتنبى كما رأيت شابا قوى الحس ، دقيق الشعور ، عنيف الطبع ، حاد المزاج ، فجعل فيما أعتقد كلما ألح خصومه فى الغض منه والنعى عليه ، ازداد عنفاً وحدة ، وتصريحاً بما كان يخفى من أمره ورأيه ، حتى قال من الشعر ما أخاف منه السلطان ، ولا سيما إذا كان هذا الشعر قد روى وتناقله الناس ، ووقع فى نفوس هؤلاء العرب المتحضرين والأعراب البادين موقع النار من الهشيم كما كان ذلك منتظراً . ويكفى أن تقرأ داليته التى يقول فى أولها :

كم قَتِيلٍ كما قُتِلْتُ شَهِيدِ

لِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ

لترى أنها كافية لتعرض الشاعر لأشد الأخطار . فالشاعر فيها ثمل قد أسكره الغضب وملكت عليه الحفيظة أمره ، فلم يستمع إلا لشيطانه ولم ينطق إلا عنه . ولم يكن شيطانه أقل منه سكراً ولا انتشاء . فهو فى القسم الأول من القصيدة نشوان يتغنى صباه ووطنه ، ويستعيد أيامه الأولى ، ولا يتردد أن يندفع إلى هذا البيت يقوله فى وصف الحسان الكوفيات :

يَترشفْنَ من فِمى رَشـفاتٍ
هُنَّ فيهِ أَحْلَى مِنَ التوْحِيدِ

ثم يمضى حتى يقول :

ما مُقامِى بأَرْضِ نَخْـلَةَ (١) إلاَّ
كمُقَامِ المسيحِ بينَ اليهُودِ

ثم يصف نفسه الطامحة وأمله البعيد ، وجده فى تحقيق هذا الأملَ ، ويعرض بخصومه فى هذا البيت تعريضاً شنيعا :

بِسَرِىٍّ لِباسُـهُ خَشِنُ القُطْـ
نِ ومَرْوِىُّ مَرْوَ لِبْسُ الْقُرُودِ

ثم يقول :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأَنتَ كريمٌ
بينَ طَعنِ القنا وخَفْقِ البُنودِ
فرُءُوسُ الرِماحِ أَذْهَبُ لِلغيْـ
ظِ وَأَشْفى لِغلِّ صدرِ الحَقُودِ
لا كما قد حيِيتَ غـيرَ حَمِيدٍ
وإذا مُتَّ مُتَّ غَـيرَ فقيدِ

---

(١) نحلة بالحاء . راجع معجم البلدان لياقوت

فاطلبِ العزَّ فى لَظَى وَذَرِ الذُ
لَّ ولو كانَ فى جِنانِ الخُلودِ
يُقتَلُ العاجِزُ الجَبانُ وقد يَعْ
جِزُ عن قَطْعِ بُخْنُقِ المولُودِ
ويُوَقَّى الفتَى المِخَشُّ وقد خوَّ
ضَ فى ماءِ لَبَّةِ الصِنديدِ
لا بِقَومى شَرُفْتَ بل شَرُفُوا بى
وبنفسى فخرتُ لا بجدُودى
وبِهِم فَخرُ كُلِّ من نَطَقَ الضَّا
دَ وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطَرِيدِ
إنْ أَكُنْ مُعجِباً فعُجْبُ عجيبٍ
لم يَجِدْ فوقَ نفسِهِ من مَزِيدِ
أنا تِرْبُ النَدَى ورَبُّ القوافى
وسِمامُ العِدَى وغَيْظُ الحَسُودِ
أنا فى أُمَّةٍ تَدارَكَها اللّـ
ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثمودِ

فأنت ترى أن المتنبي قد أثِم فى هذه القصيدة من وجوه :

فهو يذكر حلاوة التوحيد فى لهجة الساخر المستهزئ ، وهو يشبه نفسه مرة بالمسيح ، ومرة بصالح ، ويشبه المسلمين الذين كان يعيش فيهم مرة باليهود ، ومرة بثمود .

وهو بعد هذا وذاك يعلن الثورة والخروج على النظام ، ويلقى ذلك فى نفوس الناس بألفاظ ملتهبة ، توشك أن تثير فيها اللهب .

ثم هو لا يقف عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى الجهر بالقرمطية الصريحة التى تجحد الصلوات الخمس ، وتستحل دم الحجاج فى الحرم . وذلك فى ميميته التى أولها :

ضَيفٌ أَلَمَّ برأْسِى غيرَ مُحتشِمِ
السَّيفُ أَحسَنُ فعلاً منهُ باللِمَمِ

وانظر إليه كيف يقول :

لِمِ اللَّيالى الَّتى أَخنَت على جِدَتى
بِرِقَّةِ الحال واعذِرْنى ولا تَلُمِ

أَرَى أُناساً ومَحْصُولى على غَنَمٍ
وذِكرَ جُودٍ ومحصولى على كَلِمِ

وَربَّ مالٍ فقيرًا من مُرُوءته
لم يُثْرِ منها كما أثْرَى من العَدَم

سَيَصحَبُ النَصلُ منى مِثلَ مَضْربِهِ
وينجلى خبَرى عن صِمَّةِ الصِمَمِ

لقد تَصَبَّرتُ حَتَّى لاتَ مُصْطبرٍ
فالآنَ أقحمُ حَتَّى لاتَ مُقْتَحمِ

لأتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخيلِ ساهمةً
والحربُ أقوَمُ من ساقٍ على قدَمِ

والطَّعْنُ يُحرِقُها والزَّجرُ يُقلِقُها
حَتَّى كأنَّ بها ضَرْباً من اللَمَمِ

قد كَلَّمتْها العوالى فهْىَ كالحةٌ
كأنما الصَّابُ مَذرُورٌ على اللُجُمِ

بكلِّ مُنصَلِتٍ ما زالَ مُنتظِرى
حتى أدلْتُ لهُ من دَولةِ الخدَمِ

شَيْخٍ يرَى الصَلَواتِ الخَمْسَ نافلَةً
ويستحِلُّ دَمَ الحُجَّاجِ فى الحَرَمِ

وكلّما نُطِحَتْ تحتَ العَـجَاج به
أُسْدُ الـكتائِب رامَتْـــهُ ولم يَرِمِ

تُنْسِي البــلادَ بُرُوقَ الجَوِّ بارقتى
وتـكتفى بالدَّم الجارى عن الدِيَمِ

رِدِى حياضَ الرَّدَى يا نَفْسِ واترِكى
حِياضَ خوفِ الرَدَى للشاء والنَعَمِ

إن لم أذرْكِ على الأرماح سائلةً
فلا دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجدِ والـكرَمِ

أيمْلِكُ المُلكَ والأسـيافُ ظامئةٌ
والطّيرُ جائِعـــةٌ لَحْمٌ على وَضَمِ

من لو رَآنىَ ماءً مات من ظمأٍ
ولو مَثَلْتُ له فى النومِ لم يَنَمِ

ميعادُ كُلّ رقيقِ الشفرتيْن غداً
ومَن عصَى مِنْ مُلوكِ العُرْبِ والعجَمِ

فإِن أجابوا فما قَصْدِى بهـــا لَهُمُ
وإن تولّوْا فما أرضَى لها بهمِ

ثم لا يقف أمر المتنبي عند هذا الحد ، وهو فى نفسه أبعد مما يطيق الدين والنظام ولكنه يتجاوز كل حد ممكن فيقول :

أَيَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي
أَيَّ عظيمٍ أَتَّقِي
وكُلُّ ما قد خَلَقَ الْـ
ـلَهُ وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فى همتى
كشَعْرةٍ فى مَفرِقى

أترى أن المتنبي محتاج بعد ذلك إلى أن يخرج بالفعل على السلطان ، فيؤلِّب الأعراب ويغير بهم على الحاضرة . أم ترى المتنبي فى حاجة إلى أن يزعم أنه نبى ليثور به السلطان ، فيأخذه أخذاً شديداً ويلقيه فى غيابة السجن .

لقد حبس الخلفاء والأمراء غير شاعر فى القرون الأولى لأمور أيسر جدا من هذا . ولقد قتل الأثينيون سقراط لأمور ليست أشد مما تورط فيه المتنبي . فهو فى لفظه مارق

من الدين ، خارج على السلطان ، منكر للنظام ، زار على الأمة كلها . وبعض هـذا لا يبيح للسلطان سجنه فحسب ، بل يبيح للسلطان دمه أيضاً .

وإذا اتفق القـدماء أو اختلفوا فى ثورة المتنبى ، وفى طبيعة هذه الثورة ، وفى مداها . وإذا ذهب المحدثون فى ذلك مذهب القدماء ، فإنى أنا مطمئن إلى أن ما حفظ المتنبى من شعره كاف لدفعه إلى السجن . فـكيف لو رأينا ما لم يحفظ المتنبى من هذا الشعر الملتهب . وما أشك فى أنه ألغى منه أكثر مما أبقى .

سجن المتنبى إذن فى أواخر سـنة ثلاث وعشرين أو أوائل سنة أربع وعشرين فى جريمة خطيرة من جرائم الرأى ، قوامها الردة ، والخروج على السلطان ، والدعوة إلى تسليط السيف على المسلمين .

فلنعرض عن كل هذه الأساطير التى نسجت حول سجنه ، فهى إلى غلو خصومه ومبالغتهم ، وإلى تعظيم الهين وتضخيم اليسير ، واختراع القصص ، أدنى منها إلى أى شىء آخر .

وكان أبو العلاء يملى رسالة الغفران بعد مقتل المتنبى بنحو

ستين سنة ، فكان يشك فى ذلك شكا ظاهراً ، ويروى بعض هذه الأحاديث الشعبية التى أثيرت حول سجن أبى الطيب .

وأنا لا أتردد فى رفض ما يروى من أنه ادعى النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها ، وضلل فريقاً من خاصة الناس وعامتهم ، فبايعوه واتبعوه ، كما لا أتردد فى رفض هذا السخف الذى ينبئنا بأن المتنبى زعم أن قرآنا أنزل عليه ، وبأن بعض الناس قد حفظ هذا القرآن .

فقد قيل مثل هذا عن أبى العلاء أيضاً . وروى بعض قرآنه الموهوم ، وما ينبغى أن نجهل أن الرأى العام فى أوساط الشام وفى حمص خاصة كان خصما لأبى الطيب حين سجن ، وأن أبا الطيب بعد خروجه من السجن كان لا يكاد يستقر فى مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض وألوان الخصومات ، وحتى يدع هذا المكان مغاضبا لأهله أو هاربا منهم : هرب من بدر بن عمار ، وخرج من حلب مغاضباً لسيف الدولة ، وهرب من كافور ، ولم يستطع أن يطيل الإقامة فى بغداد حين عاد إلى العراق ، بل تعرض فيها لسخط رجال السياسة والأدب معاً . ثم لم تخل إقامته عند عضد الدولة من خوف

وإشفاق . ثم لم يكد يصدر عن عضد الدولة حتى قتل فى طريقه . ومن قبل ذلك فر من الكوفة فى صباه ، وخرج من بغداد خائفاً يترقب ، ولم يستطع أن يدخل الكوفة ليرى جدته قبل أن تموت . فهو قد غاضب الناس جميعاً وألَّب الدولة الإسلامية كلها على نفسه . فأى غرابة فى أن يكبر من أمره ما صغر و يعظم من شأنه ما هان .

ونحن نرى فى هذه الأيام التى سهل فيها البحث والتقصى ، وروقبت فيها الاذاعة ونشر الدعوة ، ووضعت فيها القوانين الصارمة لعقاب الذين يسبون الناس و يقذفونهم ، و يقولون فيهم غير الحق ، و يحملونهم ما لم يحتملوا ، و يضيفون إليهم ما لم يقولوا .

نحن نرى فى هذه الأيام كيف يتهم الناس بما لم يقترفوا من الذنوب ، وكيف يحمل عليهم ما لم يحتملوا من الآثام . فكيف بعصر كعصر المتنبى ، لم يعرف فيه مثل ما نعرف من النظام . على أن فى هذه الأساطير التى نسجت حول سجن أبى الطيب فكاهة ما أحسب أن لها أصلاً واقعاً ، ولكنها مع ذلك رمز صادق دقيق لهذا الطور من تفكير المتنبى وسيرته فى الوقت الذى دفع فيه إلى السجن .

فقد يقال : إن أبا الطيب كان يزعم لبعض أتباعه أن الحديث الذى كان يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم و يقال فى آخره : غير أنه لا نبى بعدى ، إنما يجب أن يقرأ برفع النبى ، على أنه خبر لمبتدأ هو لا وأن المتنبى كان يسمى نفسه لا . فهذا تكلف رجل من النحويين أراد العبث والتندر . ولكن هذا الاسم المشتق من النفى الخالص الشامل ، أشد الأسماء ملاءمة لحياة المتنبى العقلية والعملية فى ذلك الوقت . فهو كان ينفى كل شىء : كان ينفى الدين والسلطان والنظام والناس . ولم يكن يثبت إلا نفسه ، لم يكن قرمطيا فحسب ، بل كان داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها .

وما أرى إلا أن الذين ألقوه فى السجن قد أحسنوا إليه ، لأنهم كفكفوا من غلوائه وردوه عن بعض هذا الجموح . واضطروه إلى أن يهدأ و يطمئن ، و يفكر و يتدبر ، و يستقبل أمره فى أناة واطمئنان .

١١

ولم يحفظ لنا من شعر المتنبى منذ أخذ إلى أن أخرج من السجن إلا أقله ، وهو شيء يسير جداً . والمحقق أن فتى كأبى الطيب غزير المادة ، شديد الانفعال ، قليل الصبر على ما يكره ، أنشد شعراً كثيراً أثناء هذه المحنة ، ولكنه لم يثبته ولم يحرص على أن يرويه الناس ؛ فقد كان هذا الشعر قسمين : قسم قاله المتنبى قبل أن تهدأ ثورته ، ولم يكن من مصلحته أن يستبقيه أو يذيعه بعد أن تاب وجحد ماضيه . وقسم قاله بعد أن أحس الألم والذلة ، وتاقت نفسه إلى الحرية ، ولم يكن مما يلائم كبرياءه وكرامته أن يثبت هذا الشعر أو يذيع منه إلا أيسره وأهونه .

ومع ذلك فقد بقيت لنا نماذج من هذين النوعين ؛ فأما النوع الأول فقد بقى لنا منه نموذجان :

أحدهما هجاؤه للهاشمى الذى قيده وأسلمه إلى جند السلطان ، وهو قوله :

زعمَ المُقيمُ بِكوتـكينَ بأنهُ

من آلِ هاشِمٍ بْنِ عَبْدِ مَنافِ

فأجَبْتهُ مُذْ صِرْتَ من أبْنائِهِم

صارتْ قيُودُهُمُ من الصَّفْصافِ

فالشاعر فى هذين البيتين ، كما ترى يسخر من هذا الذى أسلمه وقيده سخرية لاذعة تدل على أنه ما زال من حدة الثورة بحيث لا يستطيع أن يقدر بشاعة ما هو مقبل عليه .

والنموذج الثانى هذه الأبيات التى قالها لرجل يعرف بأبى دُلف ، برّه فى السجن وكان يغرى به السلطان ، وهى :

أَهْوِنْ بطُولِ الثَّوَاءِ والتلفِ

والسجنِ والقَيْدِ يا أبا دُلْفِ

غيرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بى

والجوعُ يُرضِى الأسُودَ بالجيفِ

كُنْ أيُّهَا السجنُ كيف شئتَ فقد

وَطّنْتُ للموتِ نفسَ مُعْترفِ

لو كان سُكْناىَ فيكَ مَنقصةً

لم يكُنِ الدُّرُّ ساكِنَ الصدَفِ

ويجب أن يكون المتنبى قد قال هذه الأبيات قبل أن يطول عهده بالسجن ؛ فهو ما زال محتفظاً بكبريائه ، ولعله كان لا يزال محتفظا بآرائه ، معتزاً بها ، موطنا نفسه على الموت فى سبيلها . ولكن السجن طال عليه وثقل ، وأحاطت به الآلام والهموم وكاد ييأس . ثم أدركته العلة فتعرض للهلاك ، والله يجعل للناس من كل حرج فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا .

فهذا لؤلؤ الغورى والى الأخشيد على حمص يُستدعى من ولايته ، وهذا إسحاق بن كيغلغ يرد إلى حمص والياً بعد أن كان قد عزل عنها ، وهذا فتانا اليائس يستشعر شيئاً من الرجاء ، ويأخذ فى التوسل والاستعطاف والمدح . ولدينا من هذا الشعر نماذج ثلاثة : أولاها هذه المقطوعة البائية التى لا يزيد فيها المتنبى على الاستعطاف والتوبة ، وهى :

بِيَدِى أيها الأميرُ الأريبُ

لا لِشَىْءٍ إلاّ لأنّى غريبُ

أَوْ لِأُمٍّ لها إذا ذكرتْنى

دَمُ قَلْبٍ بدَمْعِ عَيْنٍ يذوبُ

إنْ أَكُنْ قبل أنْ رَأَيتُكَ أَخْطأْ

تُ فإنى على يديكَ أتوبُ

عائبٌ عابَنِى لَديْكَ ومِنْهُ

خُلِقَتْ فى ذَوِى العُيوبِ العيُوبُ

فهو كما ترى ذليل مستكين ، يذكر غربته وجدته النائية ، ويتوب من خطأ إن كان قد تورط فيه ، وينكر هذا الخطأ .

وهذا البيت الأخير واضح فى أنه لم يؤخذ متلبسا بالجريمة كما يقول رجال القانون ، أو لم يؤخذ ثائرا ثورة مادية . وإنما سعى به ساع فنقل إلى السلطان ما كان يقول من الشعر .

وكأن الأمير أعرض عنه أو أبطأ فى الاستجابة له فاستعطفه بالدالية المشهورة :

أيَا خدَّدَ اللهُ وَردَ الخُدُودِ

وقدَّ قُدُودَ الحِسانِ القُدُودِ

وهو فى هذه القصيدة ناسب ، مادح ، شاك ، مستعطف . ولكنى لا أقف منها إلا عند الأبيات الأخيرة التى يدافع الشاعر فيها عن نفسه ، وينكر ما اتهم به من الخروج على السلطان ، ويعترف بأنه هم ولم يفعل . ويزعم للسلطان أن لا عقاب على الإرادة ، وإنما العقاب على الفعل :

تُعَجِّلُ فىَّ وُجُوبَ الحُدُودِ

وحَدِّى قُبَيْلَ وُجوبِ السُجودِ

والشاعر هنا مبالغ يزعم أنه لم يبلغ الحلم ، ولم يستوجب الحد ، مع أن من المحقق أنه كان فى الحادية أو الثانية والعشرين .

وقيلَ عَدَوت عَلَى العالَمي-

-ن بينَ وِلادِى وبَيْنَ القُعُودِ

فما لكَ تقبَلُ زُورَ الكلامِ

وقَدْرُ الشَهادةِ قَدْرُ الشُهُودِ

فلا تَسْمَعَنَّ من الكاشحينَ

ولا تَعْبأَنَّ بِمَحْكِ اليهودِ

وماحك اليهود هذا عندى هو كما قدمت ذلك الذى كان ينافس التنوخيين العرب ، ويسعى بينهم بالبغضاء . والذى ذمه المتنبى حين مدح التنوخيين ونفى أن يكون بعضهم قد شمت ببعض :

وكُنْ فارِقاً بينَ دعوَى أردتُ

وَدَعوَى فَعلتُ بشَأْوٍ بعيدِ

والشاعر فى هذه القصيدة كما هو فى الأبيات السابقة ذليل ضارع مستعطف ، ولكنه منكر للذنب الذى يحمل عليه أشد الإنكار .

وقد سمع الأمير له هذه المرة ، ولعله سمع لبعض الشافعين فيه ، ولعله أراد أن ينقذ سجيناً حبسه سلفه فجمع له فيما يقال جماعة من أصحاب الجاه والشرف والدين واستتابه ، فتاب وأشهد على نفسه أنه جحد ما كان من أمره وعاد إلى سبيل المسلمين .

ويظهر لى أن عفو هذا الأمير التركى عن المتنبى الشاب

الذى أنهكه السجن وأضناه قد ملأ قلب الفتى سروراً ورضى ، وأثار فى نفسه الأمل أيضاً فمدحه بالرائية التى يقول فى أولها :

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضمائرُهُ

وغيَّضَ الدمعَ فانهلَّتْ بوادرُهُ

ولعله كان يرجو أن ينال بهذه القصيدة وأمثالها حظوة عند الأمير ، ما دام قد نال بالقصيدة الدالية عطف الأمير وعفوه . ولكن الأمير أبى أن يستقبله أو يسمع منه ، وتقدم إليه فى أن يترك الإقليم قانعاً بسلامته وحياته . فخرج يستقبل حياة جديدة ليست أقل من حياته الأولى بؤساً وضنكا وشقاء وبيعا للشعر فى سوق الكساد .

حياته

١٢

ليست أقل من حياته الأولى بؤساً ، ولكنها تخالف حياته الأولى فى جوهرها . فقد كان فى حياته الأولى شقيا بالأمل . وهو فى حياته الثانية شقى باليأس . وقد كان فى حياته الأولى يتحرق شوقاً إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال ، وهو فى حياته الثانية يؤثر العافية وما يكاد يظفر بها ، ويبتغى الراحة وما يكاد ينتهى إليها . وقد كان فى حياته الأولى شديد الثقة بنفسه ، عظيم الايمان بعزمه ؛ وهو فى حياته الثانية شاك فى نفسه أشد الشك ، قانط من عزمه أشنع القنوط . وقد كان فى حياته الأولى ساخطاً على ماضيـه ، متبرماً بحاضره طامعاً فى مستقبل باسم فيه الرضى وتحقيق الآمال . وهو فى هذه الحياة الثانية نادم على ماضيه الذى جحده ، ملتاع على مستقبله الذى يئس منه ، ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق ولا ينبغى أن تظن بى الأطناب والأسهاب والالحاح فيما لا يحتاج إلى إلحاح ، والاطالة فيما لا ينبغى الاطالة فيـه .

فإن هذه الحال النفسية أبلغ الأحوال تأثيراً فى نفس الشاعر الحساس ، وأشدها إنضاجاً لهذه النفس . وهى من غير شك أخصب الأحوال التى تمر بنفس الشاعر ؛ لأنها تنضجها وتشد أزرها ، وتعلمها احتمال المكروه ، وتعلمها كذلك تذوق الألم والتفريق بين أنواعها المختلفة ، واستعذابها مهما تكن ممضة وتهيئة الشاعر الصحيح للنبوغ الصحيح .

ولكنها تفعل هذا كله سراً ومن وراء حجاب . تعمل فى النفس الخفية أكثر مما تعمل فى النفس الظاهرة ، وتؤثر فى الضمير أكثر مما تؤثر فيما يشهد الشاعر من أمر عقله وقلبه وملكاته المختلفة ، حتى إذا آن الأوان وسنحت الفرصة ، وتهيأت الظروف ، ظهرت الآثار القيمة الخصبة لما يلقى الشاعر من الألم والسقم والضيق .

ومهما يكن من شىء فإن المتنبى كان فى شغل من ضميره وسريرة نفسه ، ودخيلة قلبه ، حين خرج من السجن ، واضطر إلى مغادرة الاقليم بهذه المصاعب العاجلة السخيفة التى تعترض فتى يائساً بائساً قد صرم العون وفقد الصديق .

ونظر فإذا هو وحيد فى الحياة ليس له من يفكر فيه

أو يرثى له أو يعطف عليه ، إلا جدته تلك المقيمة فى السكوفة والتى انقطعت بينها و بينه الأسباب .

وهذه المصاعب التى تعترض له ليست مصاعب معنوية تأتيه من العزلة والوحدة ، ومن افتقاد الصديق فحسب ، ولكنها مصاعب مادية أيضاً وهى أشد ما يلقى الشاعر من المصاعب سخفاً وأبلغها فى نفسه أثراً .

فهو غريب مشرّد ، لا يكاد يستقر فى مكان حتى يزعجه عنه الخوف والفزع ؛ وهو فقير معدم لا يجد ما يرضى به حاجة جسمه إلى الطعام والشراب واللباس ، فضلاً عما يستعين به على الفراغ الذى يمكنه من أن يرضى حاجة عقله وقلبه وعواطفه . ويستقبل الفتى أمره مفكراً متدبراً ، فإذا هو مضطر قبل كل شىء إلى أن يرحل عن هذه الأرض التى لا مقام له فيها : أرض الأخشيديين . فهو لا يستطيع أن يقيم فى حمص وما يجاورها من البلاد ، وهو لا يستطيع أن يعود إلى اللاذقية إشفاقاً على أهلها وإشفاقاً منهم ، وهو لا يستطيع أن يعود إلى طبرية التى خرج منها مغاضباً لأهلها ، ذاما لهم فى شعر قد سارت به الركبان ،

وهو لا يستطيع أن يدنو من مركز السلطان الأخشيدى بعد أن نفته أطراف هذا السلطان . فليس له بد إذن من أن يعود إلى شمال الشام ، هذا الذى كرهه وضاق به وفرّ منه حريصا على ألاّ يعود إليه .

وهو يعود إلى شمال الشام ليصنع فيه ماذا ؟ ليستأنف فيه تلك الحياة البغيضة التى سئمها ، وظن أنه قد خلص منها ، حياة التكسب بالشعر عند قوم لا يقدرون الشعر ، ولا يذوقون له طعما ، وعند قوم لا يقدرهم هو ولا يذوق لهم طعما ، وإنما يحتقرهم ويزدريهم أشد الاحتقار ، وأعظم الازدراء .

ليته يستطيع أن يجاوز شمال الشام هذا إلى العراق ، ليستأنف الحياة فى الكوفة حيث جدته وموطنه ، أو فى بغداد حيث الحياة العقلية الخصبة التى تبعث الخصب فى العقول والقلوب . ولكن من له بالعراق وقد تقطعت بينه وبين العراق الأسباب . وفيم يعود إلى الكوفة بائسا معدما ، وقد خرج منها يبتغى الأمل والغنى ؟ وفيم يعود إلى بغداد وقد أعجله الأمل والتماس الغنى عن الإقامة فى بغداد ؟ ليقصد

إذن إلى شمال الشام ، وليستأنف فيه حياته البائسة المضطربة ، ولينتظر فيه ما قد تتكشف عنه الأيام ؛ فالحياة فى هذا العصر بعيدة كل البعد عن الاستقامة والاضطراد . ومن يدرى لعله يظفر فى شمال الشام بما لم يظفر به من قبل ، ومن يدرى لعل الأمور أن تتغير ، وإذا هو يعود إلى أرض الأخشيد وقد زال عنها ملك الأخشيد .

ولسنا نستطيع أن نوقت الشعر الذى قاله المتنبى فى هذا الطور المظلم من أطوار حياته . ولكنا نستطيع على كل حال أن نسلك فى توقيته طريقاً كالتى سلكناها فى توقيت ما قال من الشعر فى الطور الذى سبق ما ألم به من الكارثة . فطبيعة الأشياء تقضى بأن يكون الشاعر قد انتفع بالتجربة ، وتعلم الحذر والاحتياط ، أو عاد إلى ما كان يألف من الحذر والاحتياط .

وطبيعة الأشياء تقضى بأن يخفى الشاعر ما ألم به من مكروه ، وما أدركه من خيبة ، وما تعرض له من خطر . وإذن فلن يجهر بقرمطيته وقد رأى ما جرته القرمطية عليه من شر . وإذن فلن يسرف فى وصف بأسه وشجاعته ونجدته

بعد هذه الخيبـــة التى بلا مرارتها . وإذن فلن يلم بالبادية ولن يمدح أهلها ، بعد أن ذاق من البادية وأهلها ما ذاق . ولـكنه على كل حال شاعر قد امتحن فى نفسه وفنـه وأمله . وهو ، مهما يتكلف من الاحتياط ، عاجز عن أن يخفى ما تركه هذا كله فى نفسه من المرارة .

وليس بشاعر إذا لم يستطع أن يشكو ما قاسى ويتغنى ما وجـد دون أن يفضح سره ، أو يعلن حقيقة أمره إلى الناس ؛ وإذن فيمتاز شعر الخيبة هذا بكثير جـدا من الاعتدال فى الأمل ، والرضى بالقليل ، والاقتصاد فى وصف الحرب أو فى وصف نفسه ، خائضاً غمار الحرب ، وتجنب القرمطية العملية والعقلية . ثم سيمتاز بهذا الحزن المظلم الذى لا نكاد نحققه ولا نشخصه ، ولـكننا نحسه مع ذلك غامضا ظاهراً مكتوماً مكظوماً . وهو مع هذا منبعث فى شعره وفى مقدمات قصائده خاصة . والشاعر يستطيع أن يشكو الزمان ومصائب الدهر ، ونوائب الحدثان ، ولؤم الناس ، وما أفسد أخلاقهم من المكر والغدر ، ومن الجبن والنفاق . فى هذا كله منفذ لهذا الهم الذى يغلى فى صدره ، ولهـذا

الحزن الذى يمزق قلبه تمزيقاً .

واقرأ معى هذه الأبيات التى قالها حين مر بقنّسرين فسمع زئير الأسد ، والتى لا تخلو من تأثر بما سبق إليه الشعراء القدماء ، ولا سيما امرؤ القيس (١) والفرزدق (٢) من مناجاة الذئاب والأسود .

أَجارُكِ يا أُسْدَ الفَراديسِ مُكرَمُ
فتَسكُنَ نَفْسى أم مُهانٌ فمُسْلَمُ
وَرَائى وقُدّامى عُداةٌ كثيرَةٌ
أُحاذِرُ من لِصٍّ ومنكِ ومنهمُ
فهل لكِ فى حِلفى عَلَى ما أُريدُهُ
فإِنى بأَسْبابِ المعِيشةِ أَعلَمُ

---

(١) انظر قوله فى المعلقة :

وواد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يعوى كالخليع المعيل

وما يليه .

(٢) انظر نونيته المشهورة التى يقول فيها :

تعال فان عاهدتنى لا تخوننى
نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وانظر قصته حين هرب من زياد وقصد إلى الحجاز .

(نقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٨ وما يليها — طبع ليدن)

إذًا لأتاكِ الرزقُ من كلِّ وجهةٍ
وأثريتِ مِمَّا تَغْنَمِينَ وأَغْنَمُ

فهل أحسست فى البيت الثانى ما أحسه أنا من امتلاء قلب الشاعر بالوحدة والعزلة والفراغ إن صح أن تمتلئ القلوب بهذه الأشياء . وهل رأيت الفتى كما أراه فى هذا البيت وحيداً شريداً فى فضاء الأرض الواسعُ ، وقد أطبقت عليه ظلمة الليل العريض ، وقد انصرف الفتى عن عدو وهو مقبل على عدو ، وهو يسمع زئير الأسد ، ويكاد يسمع خُطا قطاع الطريق ، ويكاد يرى أشخاص هؤلاء اللصوص الذين يأخذون السبيل على المجتمعين ، فكيف بهذا الشريد الطريد . وهل أحسست فى هذين البيتين الأخيرين ما أحسه أنا من هذا الندم اللاذع والحسرة الممضَّة ومن حزن الفتى لأنه لم يجد بين الناس من يعينه على تحقيق آماله . فإذا هو يود لو وجده بين هذه الأسود الزائرة الكاسرة . أسمعت الأسود لغناء هذا الحزين ؟ لست أدرى ولكن المحقق أنها لم تحفل به ، ولم تستجب له ، ولم تمض بينها و بينه هذه الحلف التى كان يتمناها عليها ، وحسبه أنها

قد تركت له طريقه لم تعرض له ولم تعتد عليه .

والشاعر ينتهى إلى شمال الشام ، فيقيم فى حلب إقامة غير آمن ولا مطمئن ، لأن حلب فى ذلك الوقت كانت موضع النزاع بين الأخشيديين والعباسيين ، فيرحل عنها إلى انطاكية وهناك يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس ، ولعل من خير ما قال فى أنطاكية ، هاتين القصيدتين اللتين مدح بهما المغيث بن على العجلى ، واللتين أراهما من شعره بعد الكارثة خلافا لما يرى الأستاذ بلاشير .

يقول المتنبى فى مطلع القصيدة الأولى :

دَمعٌ جَرَى فقَضَى فى الرَبعِ ما وَجَبا
لأَهْلِهِ وشَفَى أَنَّى ولا كَرَبا

ويقول فى آخرها وهو يصور ما بقى فى نفس الشاعر من حقد وحفيظة وغيظ لم يخمد بعد :

لمَّا أَقمتَ بإِنطاكِيّةَ اختَلفَتْ
إلىَّ بالخبَرِ الرُكبانُ فى حلَبا

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لاأَلوِى على أَحَدٍ
أَحُثُّ رَاحِلَتَىَّ الفَقْرَ والأَدَبا

أذاقنى زمنى بلوى شَرِقْتُ بها
لو ذاقها لبكى ما عاشَ وانتحبا
وإنْ عمرْتُ جعلْتُ الحرْبَ والِدَةً
والسَّمْهرِىَّ أخًا والمشْرَفِىَّ أبا
بِكلِّ أَشْعَثَ يلقى الموْتَ مُبْتسِماً
حتى كأنّ لهُ فى قتْلِهِ أرَبا
قُحٍّ يكادُ صهيلُ الخيل يقذِفُهُ
عن سَرْجِهِ مَرَحًا بالعِزِّ أو طرَبا
فالموتُ أعذرُ لى والصبرُ أجملُ بى
والبَرُّ أوسَعُ والدنيا لمن غَلَبا

أما القصيدة الثانية ، فالقسم الأول منها أبلغ ما صور به المتنبى فى هذا الطور من حياته رأيه فى الزمان والناس ، وسخطه على الحياة والأحياء . ولا بد من رواية هذا القسم كله ؛ لأنه يغنى عن كل شرح أو تفسير :

فؤادٌ ما تُسلِّيهِ المُدامُ
وعُمرٌ مِثلُ ما تهَبُ اللِئامُ

ودَهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ
وإنْ كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ
وما أنا منهُمُ بالعيشِ فيهم
ولكن معدِنُ الذهَبِ الرَّغامُ
أرانبُ غيرَ أنَّهُمُ مُلوكٌ
مُفتَّحةٌ عُيونُهُمُ نِيامُ
بأجسامٍ يَحَرُّ القَتلُ فيها
وما أقرانُها إلاَّ الطَعامُ
وخَيلٍ لا يَخِرُّ لها طَعينٌ
كأنَّ قَنَا فوارِسِها ثُمامُ
خَليلُك أنتَ لا من قُلتَ خِلِّي
وإنْ كَثُرَ التَجَمُّلُ والكَلامُ
ولو حِيزَ الحِفاظُ بغيرِ عَقْلٍ
تجنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الحُسامُ
وشِبهُ الشَيءِ مُنجذِبٌ إليه
وأشْبَهُنا بِدُنيانا الطَغامُ

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إلاّ ذو مَحَلٍّ
تعالَى الجيشُ وانحطَّ القَتامُ
ولَوْ لَمْ يَرْعَ إلاّ مُستَحِقٌّ
لرُتبتهِ أَسامَهُمُ المُسامُ
ومَن خَبَرَ الغَوانى فالغوانى
ضياءٌ فى بَواطِنِه ظَلامُ
إذا كانَ الشَبابُ السُكرَ والشَيْـ
ـبُ همًّا فالحياةُ هِيَ الحِمامُ
وما كُلٌّ بمعذورٍ ببُخلٍ
ولا كُلٌّ عَلَى بُخلٍ يُلامُ
ولم أَرَ مِثلَ جِيرانى ومثلى
لِمِثلى عِندَ مِثلِهِم مُقامُ
بأرضٍ ما اشتهَيتَ رأيتَ فيها
فليسَ يَفُوتُها إلاّ الكِرامُ
فهلاّ كان نَقصُ الأهلِ فيها
وكانَ لأَهْلِها منها التَّمامُ

وتستطيع أن تلحق بهذه القصيدة قصيدة أخرى تشبهها في الحزن والمرارة وشكوى الزمان . وهي عندي من شعر هذا الطور ، و إن خيل الديوان ، وظن كثير من الناس أنها متأخرة قيلت بعد انصراف الشاعر عن بدر بن عمار . وهي القصيدة التي يمدح بها أبا عبد الله محمد بن عبيد الله ابن محمد الخطيب الخصيبيّ ، وهو يومئذ يتقلد القضاء بأنطاكية وأولها :

أَفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لِذَا الزَمنِ
يَخْلُو منَ الهمِّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ

وكذلك القصيدة المشهورة التي يمدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي . والتي أولها :

لكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ
أقفَرتِ أنتِ وهُنَّ عنكِ أواهِلُ

والأخرى التي يمدح بها أخاه أبا سهل سعيد بن عبد الله ابن الحسن الأنطاكي ، وأولها :

قد علَّمَ البَيْنُ مِنا البَيْنَ أجْفَانا
تَدْمَى وألَّفَ في ذا القَلب أحْزانا

والقصيدة التى يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأوّلها :

سِرْبٌ محاسِنُه حُرِمْتُ ذواتِها

دانى الصفاتِ بَعيدُ مَوصوفاتِها

ومن هـذا الشعر أيضاً فائيته التى يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى المالكى والتى مطلعها :

لِجِنِّيَّةٍ أَمْ غادةٍ رُفِعَ السِّجْفُ

لوَحْشِيَّةٍ لا ما لوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ

والبائية التى يمدح بها علىّ بن منصور الحاجب ، ويقول فى أولها :

بأَبِى الشُّموسُ الجانحاتُ غَوَارِبا

اللابِسَاتُ من الحريرِ جلابِبا

والأخرى التى يمدح بها عمر بن سليمان الشرابى ، ويقول فيها :

نَرَى عِظَمًا بالبَيْنِ والصَّدُّ أعظمُ

ونتَّهِمُ الواشِينَ والدمعُ منهُمُ

والتى يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبى الإصبع الكاتب وأولها :

أَرَكائِبَ ٱلأحبابِ إنّ الأدْمُعا

تَطِسُ الخدودَ كما تَطِسْنَ اليَرْمَعا

وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الشعر كله فستجد فى قراءته من السأم والملل شيئاً كثيراً يلائم ما كان فى نفس الشاعر من السأم والملل حين كان ينشئه وينشده .

فهو مدح متصل متشابه معاد ، لا تجديد فيه ولا تغيير ، ولا صدق فيه ولا إخلاص ، إنما هو شعر يباع . ويجهد الشاعر فى تزيين سلعته وتحسينها ، فيبلغ من ذلك بعض ما يريد حيناً ، ويعجز عنه فى أكثر الأحيان .

وربما قسم الشاعر القصيدة بينه وبين ممدوحه قسمة عدلاً أو قسمة فيها شىء من الجور ، فاتخذ لنفسه الشطر الأول يشكو فيه ، ويذم الزمان والناس صراحة ، أو يرمز فيه بالغزل والنسيب إلى هذه الشكوى المرة المتصلة .

والحق أن شعر أبى الطيب لم يكد يرقى فى هذه الأعوام التى جاءت بعد خروجه من السجن إلا قليلاً ؛

فقد استوثق الشاعر من صناعته لكثرة المران ، واستطاع أن يذل الألفاظ ، و إن عجز عن أن يستذل المعانى . وقد أحسن التفكير فى الدهر وصروفه ، واستطاع أن يزن الأمور وزناً حسناً ، وأن يسند تشاؤمه القديم إلى العقل والتجربة والاختبار ، وأن يأتى فى ذلك بنغمات قوية مشجية باقية عامة ، تبلغ قلوب الناس جميعاً فتثير فيها الحزن ، وقد تنتهى بها إلى القنوط ، ولكن الشاعر آخر الأمر لم يضف إلى فنه القديم شيئاً فضلاً عن أن يضيف إلى الشعر لوناً لم يسبقه إليه غيره من الشعراء الذين تقدموه ، لا من حيث الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولا من حيث الأوزان والقوافى والموسيقى . إنما هو شاعر مقلد ينهج نهج المتقدمين ، ونهج أبى تمام منهم خاصة . فاذا ظهرت شخصيته من حين إلى حين ، فإنما تظهر فى أوقات العنف الذى ليس بعده عنف ، أو فى أوقات الحزن الذى ليس وراءه حزن . فما الذى كان ينقص هذا الفتى ليبلغ ما هو أهل له من التفوق الذى لا يحتمل شكا ، والنبوغ الذى لا يتعرض لخلاف .

كان ينقصه فيما أرى شيئان :

أحدهما حياة راضية تشحذ العزم وتحيي الأمل . وقد رأينا أن شعره وثب وثبة بعيدة حين انتهى إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين ، فضمن لين العيش ، ورجا تحقيق الأمل . فقال فى هذا الوقت : أجمل ما قال من الشعر بين صباه و بين الخامسة والعشرين .

والثانى بيئة مثقفة ، قوية الثقافة ، رشيدة بصيرة بالأدب ، قادرة على النقد ، عالمة بألوان الكلام . وهذه البيئة لم تتح للمتنبى أثناء إقامته الأولى والثانية فى شمال الشام ، ولعلها لم تتح له أيضاً أثناء إقامته فى أواسط الشام ، ولعله استغنى عنها وقتاً ما بكثرة ما كان يقرأ من الكتب و يستظهر من علم القدماء وأدبهم ، ولكنه كان على كل حال ناقد نفسه ، وناصحها ومرشدها ، وكان فى حاجة إلى أن يأتيه النقد والنصح والإرشاد من قوم غيره يقدرهم و يحسب لهم فى الأدب حساباً .

ولم يكن للبيئة العربية فى الشام ذلك الوقت حظ ممتاز من الثقافة الأدبية والعلمية . وأكبر الظن أن هذه البيئة كانت تنقسم قسمين :

أحدهما بدوى وهو إلى الجهل والغلظة أقرب منه إلى الثقافة واللين ، والآخر حضرى ؛ وهو لين العيش ، ولكنه غليظ العقل ، قليل الحظ جداً من العلم .

وإنما كان المتنبى محتاجاً إلى البيئة المصرية التى نشأ فيها فن أبى تمام ، وإلى البيئة العراقية التى نضج فيها فن أبى تمام أيضاً ، والتى نشأت وأنضجت فن أعلام الشعر الإسلامى منذ العصر الأموى إلى أواخر القرن الثالث .

وقد ظهر فى الشام شاعر كأبى تمام ، ولكنك علمت أن شعره نشأ فى مصر ونضج فى العراق . وظهر فى الشام شاعر كالبحترى ، ولكنك تعلم أن الذى أنضج شعر البحترى ، إنما هو اتصاله بأبى تمام ، ثم ارتحاله إلى العراق .

فأما المتنبى فقد نشأ شعره فى العراق ، وحاول أن ينضج فى الشام فأدركه البطء ، ودبّ إليه كثير من الفساد ، وظهر فيه تكلف يمقته الذوق العربى الصريح ، ولا نجده حتى عند أشد الشعراء تكلفاً ، وهو أبو تمام .

ذلك لأن المتنبى قد نشأ فى غير مدرسة ، وتعلم على غير معلم ، ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد ، وإنما

أخذهما عن الكتب والصحف وكان ينشد الجهال وأشباه الجهال ، فيسمع منهم إعجاباً كثيراً مصدره الجهل ، ويأخذ منهم مالاً قليلاً مصدره البخل . فيشتد إعجابه بنفسه لما يسمع من الثناء وما يرى من الإعجاب ، ويشتد حنقه على الناس لما يرى من البخل وما يقاسى من الحرمان .

وأنا أعلم أن اضطراب الخلافة فى بغداد ، وتسلط الترك على الدولة قد غض من أمر الشعر وقصر من همم الشعراء . وأن بغداد لم تكن فى القرن الرابع غنية بالشعراء المجيدين ، كما كانت فى القرن الثالث والثانى ، ولكنى أعلم مع ذلك أن بغداد خاصة ، وأمصار العراق عامة كانت لا تزال قلب الدولة من الناحية الأدبية ، إن كان ذلك قد أخطأها من الناحية السياسية .

ولست أشك فى أن المتنبى لو أقام فى العراق وجه حياته لأسرع إلى النبوغ ، ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرئ من كثير من العيوب التى أنكرت عليه ، ولاجتنب كثيراً من فساد اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التى سيعاب شعره بها آخر الدهر .

والأمر لا يقف عند المتنبي وحده ، فقد أصبح المتنبي كما تعلم إماماً للشعراء ، فأخذ الناس عنه فنه بما فيه من خير وشر ، وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه فى الشام مصدراً لكثير من الضعف الذى ألم بشعره هو ، ثم بشعر الذين قلدوه .

ومهما يكن من شىء فقد استقبل المتنبي الخامسة والعشرين من عمره ، وهو مضطرب فى شمال الشام ، يبيع شعره بيع الكساد كما يقول ، ولكنه على كل حال قد عرف كيف يصبر ويحتمل ، وكأن الزمان الذى كان المتنبي يذمه ويشكو منه قد رحمه ورق له ، وأراد أن يرفّه عليه شيئاً ، وأن يتيح لفنه فرصة يثب فيها إلى الأمام .

فى هذا الوقت اضطرب الأمر بين العباسيين والأخشيديين ، وأقبل ابن رائق على قسم عظيم من سوريا الجنوبية . وجعل ابن رائق على حربه فى طبرية بدر بن عمار الأسدى ، وهنالك عاد إلى المتنبي شىء من الأمل ورغب فى أن يعود إلى تلك الأرض التى لم يكن له فيها مقام بعد زلته تلك . فترك شمال الشام وانتهى إلى طبرية واتصل ببدر

ابن عمار . وعنـد بدر بن عمار وجد الأمرين اللذين كان يحتاج إليهما : وجد الحياة اللينة الهادئة ، ووجد البيئة المثقفة الناقدة ، فلم يلبث أن أحس أثر الأمرين جميعاً ، وأن وثب فنه فى أشهر قليلة فبلغ من الرقى ما لم يبلغ بعضه فى الأعوام الثلاثة أو الأربعة التى أقامها فى شمال الشام .

الكتاب الثانى

شعره

١

ولم يتصل المتنبى ببـدر مباشرة ولا فجأة أول الأمر .
وإنما سعى فى ذلك وجد وابتغى إليه الوسيلة فيما يظهر لى .
والديوان لا ينبئنا فى صراحة . والرواة لا ينبئوننا كذلك
كيف سعى إلى بدر ، وكيف انتهى إليه . ولكن قصيدة
فى الديوان لا يعرف تاريخها توشك أن تدلنا على ما نحتاج إليه
من ذلك . وهى هذه الهمزية التى مدح بها أبا على هارون
ابن عبـد العزيز الأوراجى الكاتب الذى كان يذهب فيما
يقول الديوان ، وكما سنرى من القصيدة ، مذهب التصوف .
والذى كان له شأن قبل ذلك فى قصة الحلاج (١) .

فقد يخيل إلى ، بل أكاد أرجح أن المتنبى اتخذ هذا
الرجل وسيلة إلى بدر بن عمار . ومن يدرى لعله كان يريد
أن يتخذ بدر بن عمار وسيلة إلى مولاه ابن رائق وأن يتخذ

---

(١) R. Blachère. — Abou t-Tayyib al-Motanabbi p. 90.
L. Massignon. — Al Hallaj martyr mystique de l'Islam p. 240,

ابن رائق نفسه وسيلة إلى قصر الخلافة فى بغداد) .

ولكن الأسباب تقطعت به ولما يبلغ من ذلك إلا بعض ما كان يريد .

هذه القصيدة تنبئنا بأن الشاعر قد أقبل يمدح أبا على الأوراجي من بعيد ، وقد جاز إليه جبال لبنان فى شىء غير قليل من المشقة والجهد . فأكبر الظن أن الأوراجي هذا كان فى ذلك الوقت متصلا بعمل من أعمال ابن رائق قريباً من بدر فى طبرية أو بعيداً عنه بعض الشىء فى دمشق .

فأقبل المتنبي من شمال الشام إلى جنوبها بعد أن جاءت عنه جنود الأخشيد حتى انتهى إلى صاحبه هذا فمدحه بقصيدتين .

إحداهما هذه الهمزية التى يجب أن نقف عندها وقفة قصيرة ، والأخرى أرجوزة طردية على نحو أراجيز أبى نواس قالها مستجيباً لممدوحه حين طلب إليه ذلك ، وأثبتها فى الديوان مفاخراً بها ، ومفاخراً بأنه قد قالها فى سرعة توشك أن تكون ارتجالا . وقد نتحدث عنها فى غير هذا الموضع من هذه الفصول .

وللهمزية التى نحن بإزائها فيما أرى مكانة خاصة من شعر

المتنبي . فهى القصيدة الوحيدة التى يعمد فيها الشاعر إلى المذهب الرمزى ليرضى ممدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف . وهى من هذه الجهة قيمة لأنها تبين عن علم المتنبى ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، بمذاهب المتصوفة فى الكلام ومنهجهم فى الرمز والايماء . ولأنها تظهر لنا الشاعر الفتى وقد ملك ناصية الفن حقاً ، واستطاع أن يصرفه كما يشاء ويهوى دون أن يجد منه مقاومة وامتناعاً ، ولأنها بعد هذا وذاك تكشف لنا عن براعة المتنبى ، لا فى هذا النحو من التكلف الفنى الذى كان مألوفاً فى ذلك العصر ، والذى كان يعتمد قبل كل شىء على أوجه البديع ، بل فى تكلف آخر لم يكن مألوفاً إلا عند المتصوفة والباطنية الذين يقصدون بالألفاظ والمعانى غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر من عامة الناس وخاصتهم .

والظريف أن هذا التكلف لم يفسد على المتنبى شعره فى هذه القصيدة وإنما أسبغ عليه جمالا غريبا لا نجده فى شعره العادى .

ومصدر هذا الجمال الغريب ما حاوله المتنبى من الملاءمة بين جهدين : جهد العقل وجهد الفن .

وأنت تستطيع أن تقرأ غزل هذه القصيدة فتستحسن فيه هذين الجهدين معا :

أَمِنَ ازْدِيارَكِ فى الدُجَى الرُقَباءُ

إِذْ حيثُ أَنْتِ من الظَلامِ ضِياءُ

وينبغى أن تغفر للمتنبى هـذا الجمع بين ظرفى الزمان والمكان فى أول الشطر الثانى . فهو قد أتعب النحويين تحليلاً وتعليلاً ، ولـكنه مع ذلك ظاهر المعنى . فالمتنبى لا يزيد على أن يقول لصاحبته : إن الرقباء مطمئنون إلى أنك لن تزورينى إذا أظلم الليل لأن وجهك يضىء الظلمة فينمّ عنك لأنك ضياء حيث كنت .

فالمعنى ظاهر ولـكن صيغته تعميه بعض الشىء . المعنى ظاهر ، ولـكن جهد الشاعر فى استنباطه والتعبير عنه ظاهر أيضاً . وأنت لا تلوم المتنبى ولا تعتب عليه إذا تـكلف شيئاً من الجهد فى فهم هذا البيت لأنك تحمد عاقبة الجهد ، وترى أن من حق الشاعر الذى تعب فى استنباط المعنى وأدائه أن يكلفك شيئاً من التعب فى فهمه والوصول إليه ، ما دام المعنى آخر الأمر قيما خليقاً بما بذلت من الجهد . فنحن هنا فى بيئة

أخرى . فى هذه البيئة التى يحسن أبو تمام والمتنبى خلقها ، والتى توجد تعاوناً واشتراكاً بين الشاعر والقارئ أو المستمع إليه . وإنما تخلق هذه البيئة حين يعُنى الشاعر بمعانيه ، ويصدر فيما ينشئ عن عقله وفنه من جهة ، وعن احترامه لقارئه وسامعه من جهة أخرى .

وانتقل إلى ما بعد هذا البيت :

قَلَقُ المليحةِ وَهْىَ مِسكٌ هَتكُها
وَمَسيرُها فى اللَّيْلِ وَهْىَ ذُكاءُ
أَسَفى عَلَى أسَفى الذى دَلَّهْتِنى
عن عِلمِهِ فيه عَلَىَّ خَفاءُ
وَشَكِيَّتى فَقْدُ السَقام لِأَنَّهُ
قد كانَ لَمَّا كان لى أَعْضَاءُ

فالبيت الثانى توضيح وتفصيل وإطناب للبيت الأول ، ولكن فيه تعميما ليس فى ذلك البيت . فالمليحة قلقة فيما تدبر من أمرها لأنها مسك ينم عليها نشرها ، وشمس يفضحها ضوءها وإن سرت بليل . وتصور أنت هذا الطباق الذى

يأتيه من سرى الشمس فى الليل . فإذا تجاوزت هذا المعنى فانظر إلى هـذا البيت الثالث الذى ذهب الشاعر فيه مذهب المتصوفة الصريح ، حين يلوون الألفاظ عن أساليبها الطبيعية الظاهرة . فالشاعر يأسف على أسفه الذى هو محقق ، ولـكنه لا يعلم به لأن صاحبته قد دلهته عنه وأذهلته بما يحدث فى نفسه من أثر . والشاعر يؤكد لنا هذا المعنى تأكيداً فى البيت الرابع الذى ينبئنا فيه بأنه لا يشكو السقام ، وإنما يشكو فقد السقام . ذلك أنه كان يحس السقم حين كان له جسم يمسه السقم وتلم به الآلام . فأما وقد أفنى الحب جسمه وأعضاءه فهو لا يشكو سقماً ولا ألماً ، وإنما يشكو شيئاً أبلغ من السقم والألم وهو العدم الذى يمنعه أن يحس سقما وألما . وتصور أنت شاعراً يجد نفسه ، ويشعر بها ويعلم أنه معدوم ويشكو من هذا العدم . ولـكن لا تنس أن شاعرنا يقدم هذا الكلام بين يدى مدحه لرجل من المتصوفة فهو يصطنع له مذهب المتصوفة فى الكلام والتفكير أيضاً .

مَثَّلَتْ عَيْنَكِ فى حَشَاىَ جِراحةً
فتشابَها كِلتاهُما نَجْـلاءُ

نَفَذَتْ عَلَىَّ السابِرِىّ ورُبَّما

تَنْدَقُّ فيهِ الصَّعْدَةُ السَمراءُ

وانظر إلى براعة الشاعر وقدرته على العبث بالألفاظ واتخاذ هذا العبث وسيلة إلى شعر لا يخلو من جمال . فالناس يقولون : عين نجلاء ، وهم يقولون طعنة نجلاء . فماذا يمنع المتنبى أن يشتق من هذا الاشتراك بين العين والطعنة فى النجل الذى هو السعة شبهاً بينهما ، فيجعل عين حبيبته فى حشاه لأن الطعنة التى مسته بها واسعة نجلاء كالعين التى حملت إليه هذه الطعنة . ثم هو يحقق هذا التشبيه تحقيقا بالبيت الأخير فيزعم أن عين حبيبته قد شقت عنه درعه ونفذت إلى قلبه . ودرعه مع ذلك صلبة محكمة تندق فيه الصعدة السمراء . فأصل المعنى كما ترى مألوف ، ولـكن التعبير عنه جديد . وتصوره على هذا النحو طريف يخيل إليك أن الشاعر قد ابتكره ابتكاراً :

أنا صَخْرَةُ الوادِى إِذا ما زُوحِمتْ

وإذا نَطَقْتُ فإِنَّنى الجَوْزاءُ

وإذا خفِيتُ على الغَبِىّ فعاذِرٌ

ألا تَرانى مُقـلةٌ عَمْياءُ

شَيَمُ الليالى أنْ تُشكِّكَ ناقتى
صَدْرى بها أَفْضَى أمِ البَيْداءُ
فتبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِدًا فى نِيِّها
إسآدَها فى المَهْمَهِ الأنضاءُ
أَنْساعُها ممْغُوطة وخِفافُها
مَنْكوحَةٌ وطَرِيقُها عَذْراءُ
يَتلوَّنُ الخِرِّيتُ من خَوْفِ التَّوَى
فيها كما يَتلوَّنُ الحِرْباءُ

والشاعر كما ترى فى هذه الأبيات يفخر بنفسه مقتصداً فى الفخر ، ولكنه اقتصاد لا ينبغى أن يخدعنا عن امتلاء الفتى بنفسه . فهو اقتصاد فى الألفاظ لا فى المعانى . فالشاعر صخرة تزحم من يزاحمها ، والشاعر نجم ، بل هو الجوزاء بين الشعراء . فإذا لم يفطن الأغبياء والجهال لمكانه فهو عاذر لهم . وهل على الأعمى حرج ألا يراه .

ولكن انظر إلى تصوير الشاعر لهمّهِ البعيد وأمله العريض وصدره الواسع كيف ذهب فيه هذا المذهب اللطيف

فأشرك ناقته فى التفكير، وأشرك الليل فى العمل ، وجعلنا بإزاء حركة معقدة ونشاط متصل . فهو بعيد الهم ، واسع الصدر ، عريض الأمل ، جاد فيما يبتغى ، والليالى مخلفة لظنونه ، مخيبة لآماله ، ولـكنها لا تبلغ من جهده وصدره ولا تحد من نشاطه وجده ، فهو يكلف ناقته من الجهد والعناء ما يلائم هـذه الخصومة المتصلة بينه و بين الزمان و يشق الأمر على ناقته و يعظم الخطب وتشتد المحنة . فهى تريد أن تفهم ما يلم بها ولن تخرج من حيرتها وهى تتساءل فى كثير من الشك ، أيهما أفضى بهـا : هذه البيداء التى لا تنتهى ، أم صدر صاحبها هذا الذى لا يعرف لهمه حداً ينتهى إليه .

والناقة مع ذلك ماضية فى قطع البيد واجتيابهـا مضى الهزال فى أثناء شحمها ، وقف عند هـذا الاسآد الذى تعمد الشاعر تـكراره ، فجاء به مضارعاً ومصدراً واسم فاعل قصدا إلى الإغراب والالتواء بالمعنى ؛ ليلائم بين لفظه ومعناه و بين مقامه من هذا الرجل المتصوف الذى يمدحه :

بَينِى وبَينَ أبى علىٍّ مِثـــلُهُ
شُمُّ الجِبـــالِ ومِثلُهُنَّ رَجاءُ

وعِقابُ لُبْنانٍ وكيفَ بقطْعِها

وهوَ الشتاءُ وصَيْفهُنَّ شِتاءُ

لَبِسَ الثُلُوجُ بها عَلَىَّ مَسالِكى

فكأنَّها ببياضِها سَوْدَاءُ

وكذا الكريمُ إذا أقامَ بِبَلْدَةٍ

سالَ النُّضارُ بها وقامَ الماءُ

جَمَدَ القِطارُ ولو رأَتْهُ كما ترَى

بُهِتَتْ فلم تَتَبَجَّسِ الأنواءُ

وأنت ترى من هذه الأبيات أن الشاعر حريص على ألا يدع المذهب القديم الذى ألفه الشعراء ، فيذكر طريقه إلى ممدوحه ، ولكنه على احتفاظه بهذا الشكل التقليدى يغير الأسلوب والموضوع تغييراً . فانظر إليه كيف يخلص إلى ممدوحه هذا الخلوص العجيب ، بأن يجعل بينه و بين أبى على جبالاً تشبهه فى الضخامة والارتفاع ، وفى الثبات والاستقرار ، وفى الصعوبة والامتناع . فمن شأنها أن تبعده عنه ، ولكن الشاعر يجعل بينه و بين أبى على رجاء يشبه

هذه الجبال فى الضخامة والعظم والسعة والقوة . فمن شأنه أن يقرّبه منه ، وأى جبال مهما تعظم تستطيع أن تستعصى على هـــذا الرجاء العريض العنيف الذى لا حدَّ لسعته ولا لقوته .

ثم انظر إلى وصفه الموجز لصعوبة لبنان وما ينبث فيها من العقاب ، وما يجمد على هذه العقاب من الثلج الذى ينتشر بياضــه حتى يضلل الشاعر عن مسالـكه تضليلاً فكأنه سـواد الليل .

وما أُريد أن أمضى على هذا النحو فى تحليل القصيدة كلها ، وإن كانت القصيدة كلها تعجبنى ، ولـكنى أدع لك قراءة الشطر الأول من مدحه لأبى على ومشاركتى فى الرضى والإعجاب به ، والاعـتراف بأنه إن كان كغيره من مدح المتنبى فى جوهره وأصله ؛ فإنه ممتاز فى أسلوبه ، ومذهب الشاعر فى العناية به ، والتأنق فى ذاته ، ولـكنى مضطر أن أقرأ معك هذه الأبيات التى يختم الشاعر بها قصيدته :

لَعَممْتَ حَتى المُدْنُ مِنكَ مِلاءُ

ولَفُتَّ حتى ذا الثناءُ لَفَاءُ

ولَجُدتَ حتى كِدتَ تبخلُ حائلاً
للمُنتهى ومن السُرُورِ بُكاءُ
أبدأْتَ شيئاً لَيس يُعْرَفُ بَدؤُهُ
وأعدتَ حتى أُنكِرَ الإبداءُ
فالفخرُ عن تقصِيرهِ بِكَ ناكِبٌ
والمجدُ مِن أنْ يُسْتزادَ براءُ
فإِذا سُئِلتَ فلا لأنَّكَ مُحْوِجٌ
وإذا كُتِمتَ وشَتْ بكَ الآلاءُ
وإذا مُدِحْتَ فلا لتَكسِبَ رِفْعةً
للشاكِرِين على الإِلٰهِ ثناءُ
وإِذا مُطِرتَ فلا لأنكَ مُجْدِبٌ
يُسقَى الخصيبُ وتُمْطَرُ الدأْماءُ
لم تَحْكِ نائِلَكَ السحابُ وإنما
حُمَّتْ بهِ فَصَبِيبُها الرُحَضاءُ
لم تلقَ هذا الوَجْهَ شَمسُ نَهارِنا
إلَّا بوجهٍ ليسَ فيهِ حَياءُ

فبأَيِّما قدمٍ سَعَيتَ إلى العُـلا
أُدُمُ الهلالِ لأخْمَصَيْكَ حِـذاء
ولكَ الزمانُ مِنَ الزمانِ وِقايةٌ
ولكَ الحِمامُ مِنَ الحِمامِ فِدَاء
لولم تـكُنْ من ذا الورَى الذْ منكَ هُوْ
عَقِمَتْ بمَولِدِ نَسْلِها حَـوّاء

وما أراكَ فى حاجة إلى أن أدلك على هذه المبالغات التى أسرف الشاعر فيها إسرافا شديداً كعهده حين يبالغ ، ولا إلى أن أدلك على تعمده اصطناع مذاهب الصوفيـة واستعارته ألفاظهم ومعانيهم ، واضطراره من أجل هذا كله إلى أن يحمل ألفاظه أعباء ثقالا كما فى هذا البيت :

لولم تـكُنْ من ذا الورَى الذْ منك هُوْ
عَقِمتْ بموْلِدِ نَسْـلِهَا حــوّاء

ولـكنك توافقنى فيما أظن أن المتنبى قد جاوز فى هذه القصيدة طوره الذى رأيناه فيه قبل إنشائها حين كان مضطرباً فى شمال الشام يبيع شعره فى سوق الـكساد ، تجاوز هذا الطور

إلى طور جديد وثب إليه وثوباً . ووثب إليـه فجأة وعلى غير انتظار أو قل دفع إليه دفعاً . دفعه إليه انهزام الأخشيديين الذين لقى فى ظلهم ما لقى من المحن ، وذاق فى ظلهم مرارة الأسر والسجن والزمان ، ورجوع الأمر فى الشام إلى عربى مهما يكن أمره ومذهبه ، فليس تركيا ولا زنجيا كالأخشيد ، وابن كيغلغ وكافور . ولا شك فى أن هـذا الأمل القوى الذى ملأ نفس المتنبي وقلبه قد رد إليه الثقة بفنه إن لم يكن رد إليه الثقة بنفسه . فهو مطمئن منذ الآن إلى أنه لن يبيع شعره فى سوق الـكساد . و إذا لم تعد إليـه الثقة بنفسه قائداً أو زعيما أو سيداً عظيماً ، فلا أقل من أن الثقة قد عادت إليه بنفسه شاعراً بارعاً نابغة مقرباً إلى الأمراء ، ثم إلى الملوك ثم من الخليفة . من يدرى ؟

وقد رأيت كيف أثر اتصاله بالتنوخيين فى فنه فوثب به من طور إلى طور ، فكيف به الآن وهو يرجو أن يتصل بمن لا يقاس إليـه التنوخيون قوة و بأساً ، وثروة وجاهاً ، وقرباً من الملوك والخلفاء . ومهما يكن من شىء فقد غلب المتنبى على أمره . غلبه فنه وغلبته سنة هذا الفن ؛ كان يظن

ويرجو أن يكون رجلاً مستقلا له رياسة وزعامة وسلطان . وكان يظن فى أول أمره أن يصلح بثورته كثيراً من شؤون الحياة ونظم الاجتماع . ثم كان يظن بعد ذلك أن يتخذ الثورة وسيلة إلى الحكم والسلطان إذا لم يستطع أن يتخذها وسيلة إلى الإصلاح .

ولكن التجربة علمته أنه لم يخلق لهذا ، وإنما خلق ليسلك طريق الشعراء من قبله فيمدح الطغام ، ثم أوساط الناس ، ثم أشرافهم ، ثم من يدرى لعله يصل إلى القصر .

غلبه فنه وغلبته طبيعة الشاعر ، وانهزم المتنبى المصلح ، وانهزم المتنبى الطموح إلى الاستقلال ، ولم يبق من كل تلك الآمال والمطامع إلا شاعر يلتمس الثروة والغنى ، ويجد فى سبيل اللذة المعتدلة والهدوء . وقد يقوى طمعه ، وقد تحدثه نفسه بالطموح إلى شىء من السلطان يوما ، ولكنه على كل حال لن يفكر فى الاستقلال ، ولن يتصور الحياة إلا فى ظل رجل عظيم من هؤلاء الذين كان يذمهم ويشهر بهم ، والذين سيذمهم ويشهر بهم أيضا فيما سيستقبل من أيامه .

كان كبر نفس المتنبى فى شبابه خداعاً وضلالاً ، لم يلبث

أن زال عنه حين تعرض للخطر الصحيح ، وسيبقى من كبر المتنبي هـذا ، وسيبقى من رغبة المتنبي فى الإصلاح وسخطه على الناس ، وانتقاضه على المألوف من نظم الحياة ، كلام كثير لا يخلو من قوة وروعة وجمال ، ولـكنه كلام لا أكثر ولا أقل .

ولست أدرى أ كان الأوراجي هذا قريباً أم بعيداً من بدر بن عمار ، ولـكن المتنبي أقام معه حيناً على كل حال كما تدل على ذلك طرديته التى أشرنا إليها آنفاً ، ثم اتصل من طريق الأوراجي هـذا فيما أرى ببدر ، فلا تسل عن فرحه ومرحه ، ولا عن ابتهاجه وامتلاء نفسه بالغبطة والرضى ، ولا تسل عن ارتفاع فنه وانحطاط نفسه إذا لم يكن بد من أن تقلده مرة فتصطنع الطباق .

٢

ومع ذلك فبدر هذا الذى يقبل عليه المتنبى وقد امتلأ قلبه بالإقبال عليـه بهجة وسروراً ، يعجز عن إخفائهما فيما سـترى من شعره ، هو الذى هجاه المتنبى نفسـه قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة ، حين ولى على حلب ، فأقبل إسحاق ابن كيغلغ من قبـل الإخشيد ، فأزعجه عنها ورد إليها واليها السابق .

وذلك حين يقول المتنبى فى الداليـة التى استعطف بها ابن كيغلغ وسأله فيها أن يعفو عنه :

رَمَى حَلَباً بنـواصى الخُيُولِ
وسُمْرٍ يُرِقْنَ دَمًا فى الصَّعِيدِ
و بِيضٍ مُسافِرَةٍ ما يُقِمْـ
ـنَ لا فى الرِّقابِ ولا فى الغُمُودِ
يَقُدْنَ الفَنَاءَ غَداةَ اللِقاءِ
إلى كلِّ جَيشٍ كَـثِيرِ العَدِيدِ

فوَلَّى بأشـــياعِه الخَرْشَنِىُّ

كَشاءٍ أَحسَّ بزَأْرِ الأُسُودِ

يرَوْنَ من الذُعْرِ صوتَ الرِياحِ

صَهيلَ الجِيادِ وخَفْقَ البُنُودِ

فقد كان بدر وأصحابه إذن غنما تشفق من زئير الأسود وكانوا هرابا تروعهم أصوات الرياح ، فيسمعون فيها صهيل الجياد وخفق البنود .

فأما سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة حين دارت الدائرة على الإخشيديين فى هذا القسم من بلاد الشام وحين أتيحت لبدر ولاية طبرية ، وأتيح المتنبى أن يتصل به ، فانظر كيف يستقبله المتنبى وكيف يتحدث عنه :

أَحُلْمًا نَرَى أم زماناً جَـدِيدا

أَمِ الخَلْقُ فى شخصِ حَىٍّ أُعِيدا

تجَلَّى لنا فأضـــــأْنا به

كأَنَّا نُجومٌ لقِينَ سُـعُودا

رَأَيْنا بِبَـــــدْرٍ وآبائِهِ

لِبدرٍ وَلُودًا و بدْرًا وَليـــدا

فالحياة كما ترى فى ظل بدر من الروعة والجلال ومن البهجة والجمال ، بحيث تخلط الأمر على الشاعر ، فيخيل إليه مرة أنها حلم ، ويخيل إليه مرة أخرى أن الزمان قد تجدد ، ويخيل إليه مرة ثالثة أن الله قد سمع لابى نواس ، فجمع الخلق كله فى شخص واحد . وهو يوضح هذا كله ويجمله بهذا البيت الثانى الذى يزعم فيه أن بدراً تجلى له وللناس ، فاكتسبوا منه ضوءهم وبهاءهم كأنهم النجوم قد لاقت سعودا .

وتستطيع أن تقول : إن هذا تلون الشعراء وتقلبهم ، كما تتلون الحياة ، وكما تتقلب صروف الأيام ، وما أخالفك فى ذلك ، وما أنكر عليه منه شيئاً ، وإنما ألاحظ أن صاحبنا شاعر قبل كل شىء ، يغلبه فنه وطبيعته الشاعرة المشبهة لطبيعة الشعراء المعاصرين له على ما ظهر فى صباه وشبابه من القوة والأيد ، ومن شدة البأس وصعوبة المراس والطموح إلى جلائل الأعمال .

فالذين يرون هذا الاضطراب فى حياة الشاعر الفتى ويحسون انهزام المصلح والفيلسوف ، وصاحب الحزم والعزم أمام الشاعر الذى يكسب حياته بالمدح الكاذب والثناء الباطل

وينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها ، ثم ينظرون إليه على رغم ذلك كما ينظرون إلى المصلح الفيلسوف ، وينتظرون منه على رغم ذلك ما ينتظرون من المصلح الفيلسوف ، يكلفون أنفسهم عناء لا يغنى ، ويكلفون العلم شططا لا يستطيع العلم له احتمالا . لقد ملك الفرح بلقاء بدر على المتنبى أمره ، كأنه المسافر قد أحرقه الظمأ ، حتى كاد يشرف على الهلاك ، ثم رأى الماء ، فأقبل عليه مندفعاً ، لا ينظر وراءه ولا يفكر فيما قد يتعرض له بعد أن يروى غلته ، ويشفى صداه . وكذلك اندفع المتنبى فى مدح بدر بهذه القصيدة الدالية التى أراها أولى مدائحه لهذا الأمير ، والتى أُعجل فيها الشاعر عن المقدمة والتمهيد ، فلم ينسب ولم يتغن وإنما هجم على المدح هجوماً فى غير تحفظ ولا احتياط . وما أرى أنه قد جدد فى فن المدح شيئا ، أو أحدث فيه ما لم يسبقه إليه الشعراء المادحون . ولكنى أحس فى هذه القصيدة قوة قوية مشتقة من أمل الشاعر ونشاطه ، ومن حدة نفسه وتهالكه على الراحة بعد التعب ، وعلى الرضا بعد السخط ، وعلى الغنى بعد الفقر ، وعلى الأمن والهدوء ، بعد الخوف والإشفاق .

وهذه القوة تفيض على القصيدة رونقاً يجرى فى أبياتها شيئاً من الإشراق المبتهج الذى يحببها إليك ، ويجذبك إليها وإن لم تجد فيها غناء . وهى تفيض على ألفاظ القصيدة جزالة لا تجحد ، ورصانة ليس فيها شك ، وما أرى إلا أن ما كان يملأ نفس الشاعر من فرح وأمل ونشاط ، هو الذى دفعه إلى هذا البحر المتقارب الذى يلائم اضطراب النفس بالأمل القوى حين تضطرب بالأمل القوى ، وغليان النفس بالحزن المضطرم حين تغلى بالحزن المضطرم .

واقرأ معى هذه الأبيات فسترى هـذا كله واضحاً فيها أشد الوضوح :

طَلَبْنَا رِضَـاهُ بِتَرْكِ الذى
رَضِينا لهُ فترَكْنا السُجُودا

أَمِيرٌ أَمِيرٌ عليْـهِ النّدَى
جَوادٌ بخيلٌ بأَنْ لاَ يَجُودَا

يُحَدَّثُ عن فَضْـلِهِ مُـكْرَهًا
كأنّ لهُ منهُ قلباً حَسُودا

وُيقْـدِمُ إلاّ عَلَى أن يفِرَّ

ويَقْدِرُ إلاّ عَلَى أَنْ يزِيدا

فانظر إلى الشاعر كيف يؤثر الإيجاز فى أبياته ويفر من التفصيل فراراً . يضمن كل بيت معنى مستقلاً ، وقد يضمن البيت معنيين يستقل بكل واحد منهما شطر من الشطرين . كأنما الشاعر عجل يريد أن يغلب الأمير على التفكير والروية ، فهو يرميه رمياً سريعاً جدا بهذه الأزهار المتلاحقة التى ليس بينها أناة ولا مهل ، حتى يبهر الأمير ويعجله عن أن ينظر فى هـذه الأزهار نظر الممتحن المتخير ، أو كأنه يريد أن يدفنه فى هذه الأزهار ، فهو يلح عليه بها إلحاحاً حتى يضطره إلى أن يقفه ، وأن يقول له حسبك فقد أرضيت وأربيت .

ولسنا نحن معجلين عن التفكير والروية ، ولسنا نخاف من الشاعر أن يدفننا فى أزهاره هذه ، فقد ذبلت هذه الأزهار بعد أن مضى عليها أكثر من عشرة قرون . ونحن إذن ننظر فيها على نحو من الأناة والمهل ، يكشف لنا عن نفس الشاعر الذى صاغها ووهبها هذا الأمير .

ونحن إذا نظرنا فى هذه الأزهار ، دلتنا على أن الشاعر

كان يريد أن يبهر ممدوحه من جهة ، وكان صادقا فى تصوير ما يملأ نفسه ويملكها من الفرح والمرح والسرور ، فهو يصطنع المبالغة ، ولكنه لا يتكلفها ليخدع بها الممدوح عن نفسه وماله ، وإنما تصدر عنه فى غير تكلف ؛ لأنها تصور نفسه الراضية المبتهجة الآملة . كان يريد أن يسجد للأمير ، ولكن الأمير كره أن يُعبد من دون الله ، فأرضاه الشاعر بترك السجود له . ولو أن بدراً طغى على نفسه وعلى الناس ، وخرج عن طوره ، ورضى من المتنبى وأشباهه أن يسجدوا له لما تردد المتنبى ، فيما أرى ، ولما كره أن يتقرب إليه بالسجود وأن يخرج له عن هذه الكبرياء ، التى صورته لنا فى شبابه عزيزا أبيا لا يقبل الضيم . وسنرى أن حياة المتنبى منذ ذلك الوقت ليست إلا سلسلة متصلة من بذل هذه الكبرياء ، للسادة والقادة والأمراء ، ثم البكاء عليها بعد أن يبذلها ويفرط فيها . وسنرى أن المتنبى لم يخرج لبدر وأشباهه عن كبريائه وحدها ، بل خرج لهم عن أشياء كثيرة أخرى ليست أقل من الكبرياء خطراً عند الرجل الكريم .

والمتنبى يرى أن بدراً هو الأمير كل الأمير لا يؤمر عليه

إلا الندى ، ويرى أنه الجواد ، كل الجواد لا يبخل على الناس إلا بالبخل . ويرى أنه إذا مدح كره المدح وضاق به ، كأنه يحسد نفسه ، ويرى أنه يقدم على كل شيء إلا الفرار ، ويقدر على كل شيء إلا على أن يزيد حظه من الفضيلة لأنه قد بلغ أقصاها الذى لا مزيد عليه .

والشاعر يمضى على هذا النحو إلى آخر القصيدة : معان قوية تستمد قوتها من المبالغة والطباق ، ومتلاحقة يدفع بعضها بعضاً ، وتحملها إلى أذن الممدوح ألفاظ خفيفة سريعة كأن لها أجنحة تشق بها الهواء . وهى مع ذلك متينة رصينة لا تؤذى السمع ولا تنبو عن الطبع . فإذا بلغ المتنبى رضا ممدوحه ، وأخذ من ماله حتى اكتفى ، وأمن بعد خوف ، واستراح بعد جهد ، وتغطى كما يقول أبو نواس من دهره بظل جناحه ، ثابت إليه نفسه ، وعاد إليه رشده ، وتقدم فى مدحه هادئاً مطمئنا ومفكرا مرويا .

ويجب أن نعتدل ونقتصد حين نذكر تفكير المتنبى وترويته ، فهو لا يفكر ولا يروى إلا فى فنه ، فأما فى طبيعة الأشياء ، وأما فيما يحسن وما لا يحسن ، وأما فيما يقال وما لا يقال .

فالمتنبي لا يعرف تروية ولا تفكيراً . وإنما هو إذا أقبل على بدر بالمدح بعد هذه القصيدة سلك طريقه المألوف ، واصطنع الأناة والمهل . فقدم النسيب والغناء بين يدى المدح والثناء ، ولم يندفع بمعانيه وألفاظه اندفاع السيل المنحدر من القمة العالية إلى القاع السحيق ، وإنما سار بها سيراً يختلف سرعة وبطئا ، ولكنه معتدل على كل حال . وهو غير معجل عن نسيبه حين ينسب ، ولا عن تشبيهه حين يشبه ، ولا عن وصفه حين يصف ، وهذا لا يمنعه من المبالغة والإسراف ، بل قد يدفعه إليهما دفعاً .

فانظر إلى هذه القصيدة التى مدح بها بدراً ، وقد أراد الطبيب أن يفصده فغلظ عليه وأذاه ذلك بعض الشىء ، فسترى أنه قد عاد فيها إلى مذهبه ومذهب غيره من الشعراء ، فقدم بين يدى المدح بهذا الغزل المصنوع الذى يظهر فيه جهد العقل والفن أكثر مما تظهر فيه حرارة العاطفة وقوة الشعور . ثم تغنى بعد ذلك بشىء يسير من أمره ومن خلقه ، وكأن صوابه قد ثاب إليه ، وكأنه يسترد من نفسه بعض ما أعطى ، فهو يتحدث بكثرة تنقله ، وبأنه إذا أنكر قوما

زال عنهم ، و بأن أرض الله واسعة وفيها للكريم مضطرب كما قال القدماء .

ثم هو بعد ذلك يمضى فى مدح بدر ، حتى يصل إلى خطأ الطبيب . فانظر إليه كيف يصور هذا الخطأ فى هذا التكلف الذى قد لا يخلو من سماجة تخفيها جزالة الألفاظ ورصانتها :

لم تُبقِ إلاَّ قليلَ عافيةٍ
قد وَفَدَتْ تجتديكها العِلَلُ
عُذْرُ المَلُومين فيكَ أنّهما
آسٍ جبانٌ ومِبْضعٌ بطلُ
مَدَدْتَ فى راحةِ الطَبيب يدًا
فما درى كيفَ يُقطعُ الأملُ
إنْ يكُنِ البَضْعُ ضرَّ باطِنَها
فرُبَّما ضرَّ ظهْرَها القُبَلُ
يَشُقُّ فى عِرقِها الفِصادُ ولا
يَشُقُّ فى عِرقِ جُودِها العذَلُ
خامَرَهُ إذْ مَدَدْتَها جزَعٌ
كأنَّهُ من حَذاقةٍ عجِلُ

جازَ حُدودَ اجتهـــادِه فأَتى

غيرَ اجتهـــادٍ لأُمِّهِ الهبَلُ

أبلغُ ما يُطلَبُ النجـــاحُ بهِ الـ

طبعُ وعنـــدَ التعمُّـقِ الزَّلَلُ

ارثِ لهَـا إنَّها بما ملَـكتْ

وبالذى قد أسلْتَ تنهمِلُ

مِثلُكَ يا بدرُ لا يكونُ ولا

تصلحُ إلاَّ لمثـــلِكَ الدُوَلُ

أما أنا فلا أرى فى هذا الكلام جمالاً ولا حسنا ، وإنما أرى فيه صنعة ثقيلة ، وتكلفا بغيضا ، وسماجة يخفيها الفن ويسبغ عليها زينة كاذبة ، وحيلة باطلة . وليس يعدل مافى هذا الكلام من السماجة الخفية إلا هذه السماجة الظاهرة فى بيت آخر من هذه القصيدة يسبق هذه الأبيات وهو قوله :

يا بدرُ يا بحرُ يا غمـــامةُ يا

ليثَ الشرَى يا حِمامُ يا رَجُلُ

وما أشك فى أن المتنبى كان معجباً بهذا البيت ، وما أشك

فى أنه أنشده مقطعاً له ، واقفاً عند كل جزء من أجزائه . وقد ملأه التيه والغرور ، وما أشك فى أن إعجاب بدر بهذا البيت لم يكن أقل من إعجاب المتنبى . وما أرتاب فى أن كثيراً من الناس يعجبون به و يغلون فيه ، كما فعل المادح والممدوح . ولكنى لا أدرى لماذا يخيل إلىّ أن هذا البيت يصور أسمج ما كان فى المتنبى حين كان ينشد بين يدى ممدوحيه من هذه الخيلاء التى لا تمثل إلا ذلة وضعة وضعفاً وسخفاً .

على أن أجود ما قال المتنبى فى بدر عندى هى لاميته ، التى يصف فيها ما كان بين بدر و بين الأسد من صراع ينتصر فيه بدر . فالمتنبى قد صور الأسد المصارع المدافع فى هذه القصيدة ، وصور هذا الصراع والدفاع تصو يراً رائعاً بارعاً ، بز فيه نفسه ، وفاق فيه طاقته ، وخرج فيه عن طوره المألوف .

وأ كاد أعد هذه القصيدة من آيات المتنبى ، بل أنا أعدها من هذه الآيات ، ولا سيما هذا القسم الوصفى منها ، لولا أن فيها سخفاً سخيفاً ورطته فيه المبالغة ، وردته إلى بعض ما كان يهذى به فى شبابه مما ينحرف عن الدين فى غير روية ولا تفكير ولا غناء فلسفى . فقد يحتمل من الشاعر

أو المفكر أن ينحرف عما يألف الناس وعما يحبون و يؤثرون حين يدعوه إلى ذلك لون من ألوان الجمال ، أو يغريه بذلك فن من فنون التفكير ، أو رأى من الآراء الفلسفية . فأما أن يتجاوز القصد و ينحرف عن المألوف لا لشىء إلا ليزيد فى تملق ممدوحه ، و يزيد بذلك حظه من الجائزة ، فهذا هو الصغار الذى لا ترضاه إلا النفس الصغيرة . وهذا السخف الذى دفع إليه المتنبى فى هذه القصيدة هو قوله :

لو كانَ عِلْمُكَ بالإلهِ مُقَسَّمًا
فى الناسِ مَا بعَثَ الإلهُ رَسُولا
لو كان لَفظُك فيهمُ ما أَنْزَلَ الْـ
ـفُرْقَانَ وَالتَورَاةَ وَالإنجيـــــلا

أفتراه طمع فى أن يستهوى بدراً إلى قرمطيته القديمة ؟ من يدرى ؟ ولكننا نتجاوز له عن هذا السخف فى سبيل هذا الوصف الرائع الذى لابد من روايته لأنه أجمل من أن يهمل :

أَمُعفِّرَ اللَيثِ الهِزبرِ بِسَوْطِهِ
لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصارمَ المصْقولا

وَقعَتْ على الأرْدُنِّ مِنْهُ بَلِيَّةٌ
نُضِدَتْ بهـا هامُ الرِّفاقِ تُلولا

وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحيرةَ شارباً
وَرَدَ الفُـراتَ زئيرُهُ والنيلا

مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفوارِسِ لابسٌ
فى غيلِهِ من لِبدتيْـه غِيلا

ما قُوبلتْ عيْـــناهُ إلاّ ظُنَّتا
تحتَ الدُجى نارَ الفرِيقِ حُلولا

فى وَحْدةِ الرُهبانِ إلاّ أنهُ
لا يعرِفُ التحْريمَ وَالتحليلا

يطأُ الثرى مُتَرَفِّقاً مِنْ تِيهِهِ
فكأنَّهُ آسٍ يجُسُّ عليـلا

وَيرُدُّ عُفْـرَتهُ إلى يافوخِه
حتّى تَصيرَ لرأسِـهِ إكْليلا

وَتظنُّهُ مِمّا يُزمجِرُ نفسُـهُ
عنهـا لِشِدَّةِ غَيْظِهِ مَشْغولاً

قَصرَتْ مَخافتُهُ الخُطا فكأنَّما
رَكِبَ الكَمِىُّ جوادَهُ مَشكولا

أَلقى فريستَهُ وبَربَرَ دونها
وقَرُبتَ قُرباً خالَه تطفيلا

فتشابَهَ الخُلُقانِ فى إقدامِهِ
وتخالفا فى بَذلِكَ المأْكولا

أَسَدٌ يرَى عُضْوَيه فيك كِلَيهِما
مَتْناً أَزَلَّ وساعِداً مَفْتُولا

فى سَرْجِ ظامئةِ الفُصوص طِمِرَّةٍ
يأبَى تَفَرُّدُها لها التمثيلا

نيَّالةِ الطَلَباتِ لَوْلا أنَّها
تُعطِى مَكانَ لِجامِها ما نِيلا

تَنْدَى سَوالِفُها إذا اسْتَحْضَرتَها
ويُظَنُّ عَقدُ عِنانِها محلولا

ما زال يَجْمَعُ نَفْسَهُ فى زَوْرِهِ
حتى حَسِبْتَ العرضَ مِنْهُ الطُولا

وَيدُقُّ بالصدرِ الحِجارَ كأَنَّهُ
يَبْغِى إلى ما فى الحضيضِ سَبِيلا
وَكأنّه غرَّتْهُ عينٌ فادَّنَى
لا يُبْصِرُ الخَطْبَ الجليلَ جليلا
أَنفُ الكريم من الدنيئةِ تاركٌ
فى عينِهِ العددَ الكثيرَ قليلا
والعارُ مَضّاضٌ وَلَيْسَ بِخائِفٍ
مِن حَتفِهِ مَنْ خافَ مِمّا قيلا
سَبَقَ الْتِقاءَكَهُ بوَثبةِ هاجمٍ
لو لم تُصادِمْهُ لجازَكَ مِيلا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُه وقد كافَحْتَهُ
فاستنصَرَ التسليمَ والتجديلا
قَبَضَتْ مَنِيَّتُهُ يدَيه وَعُنْقَهُ
فكأنّما صادَفْتَهُ مَغلولا
سَمِعَ ابنُ عَمَّتِه به وبِحالِهِ
فَنَجا يُهَرْوِلُ أمسِ منك مَهولا

وأَمَرُّ مِمّـا فَرَّ منـهُ فِرارُهُ

وكَـقَتْلِهِ أَن لا يَمُوتَ قَتِيلا

فهذا كلام يكفى أن تنظر فيـه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة ، وترى فيـه فتوة وقوة ، ما أرى إلا أن الشاعر قد استعارهما من نفسه ، وخلعهما على ممدوحه ، لا لأنى أجحد بلاء ابن عمار حين رد الأسد عن نفسه بالسوط ، بل لأنى أحس روح الشاعر يجرى فى هذا الكلام قويا فتيا مستجمعاً قوته وفتوته ، كأحسن ما استجمعهما فى شعره كله . وأنت تستطيع أن تقدر ما فى هذا الكلام من جزالة تلائم ما فيه من سهولة ويسر ، وأن تقدر ما وفق إليه الشاعر أحسن توفيق من وصف الناس ، والفرس ، والليث ، وما كان بين الخصمين من صراع ، ثم من الجمع بين وصفه المادى ، ووصفه المعنوى النفسى لليث إن صح هذا التعبير . ثم من حديث هذا الأسد الآخر الذى جعله ابن عمة الأسد القتيل ، فقد سمع بما ألم بابن خاله ، ففر وآثر العافية لنفسه .

وأنت معجب كذلك بهـذه الأبيات التى ينثر الشاعر فيها حكما وأمثالاً أثناء هذا الوصف الرائع ، لا لأن هذه

الحكم والأمثال طريفة فى نفسها ، فهى مما ألف الناس ، بل لأن موقعها أثناء هذا الوصف لا يخلو من الطرافة . فالناس إنما يفلسفون ويضربون الأمثال حين يتحدثون عن بلاء الانسان وما يحدث له من الخطوب . فإذا تحدثوا عن بلاء الحيوان وما يعرض له من الأمر ، فقلما يفلسفون لأن الحيوان نفسه لا يفلسف ولا يروى . ذلك إلى أن مكان هذه الحكم والأمثال يشيع فى هذا الوصف غناء يخرجه عن أن يكون وصفاً عادياً ، كما يخرجه عن أن يكون مدحا عادياً .

ولسنا نعرف دقائق حياة المتنبى عند بدر ، ولكننا نقدر أن هذا الشعر الرائع قد أرضى بدرا كل الرضى ، وأثار فى نفوس حاشيته شيئاً من الحسد ، لم تلبث آثاره أن ظهرت واضحة كل الوضوح . وقد أشار إليها المتنبى نفسه فى هذه اللامية الأخرى التى مدح بها بدراً ، والتى يقول فيها :

بَقائِى شاءَ لَيسَ هُمُ ارتحالا
وحُسْنَ الصبرِ زَمُّوا لا الجِمالا

فهو ينسب فى أول هذه القصيدة نسيباً مصنوعا كعهده منذ أقام عند بدر ، ثم ينتقل من هذا النسيب إلى غناء يذكر

فيه نفسه ، ولا شك فى أنه يعرض فيه بحاله الخاصة ، ويكاد ينبئنا بأنه سيضطر إلى الرحيل عن بدر . وذلك حيث يقول :

كأنَّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقلبى
فساعةَ هَجْرِها يجِدُ الوِصالا
كذا الدُنيا على مَن كانَ قَبْلى
صُرُوفٌ لم يُدِمْنَ عَلَيهِ حالا
أَشَدُّ الغَمِّ عِندِى فى سُرُورٍ
تيَقَّنَ عنه صاحِبُهُ انتقالا
أَلِفتُ تَرَحُّلى وجَعَلْتُ أَرْضِى
قتُودِى والغُرَيْرِىَّ الجُلالا
فما حاولْتُ فى أرضٍ مُقامًا
ولا أزمَعْتُ عَنْ أرضٍ زَوالا
عَلَى قلَقٍ كأنَّ الرِيحَ تحْتى
أُوجِّهُها جَنوباً أو شَمالا

وكأنه أشفق أن يفهم عنه هذا التعريض على وجهه ، وأن

يشعر بما يدبر فى نفسه ، فجعل هذا البيت الأخير تخلصا إلى صاحبه ، وزعم أنه يوجه هذه الريح إلى بدر ، ثم يمضى فى مدح بدر حتى يصل إلى هذين البيتين اللذين سيتمثلهما فى بغداد بعد أكثر من خمس وعشرين سنة ، حين يلح عليه شعراء العراق بالهجاء ، فيسأله أصحابه أن يرد عليهم ، فيزعم أنه سبق إلى الرد عليهم فى شبابه حين قال :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّي
ومن ذا يحمَدُ الداءَ العُضالا
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ
يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وقد أضاف ابن رائق السواحل إلى عمل بدر ، فهنأه المتنبى بمقطوعة تجدها فى الديوان ، ولكن بدرا حين سافر إلى السواحل ليتسلم ما أضيف إليه من الأقاليم ، لم يصحبه المتنبى فى سفره هذا . وانتهز خصومه هذه الفرصة ، فأغروا به الأمير وحرضوه عليه ، وكأن إغراءهم وتحريضهم قد وقع من نفس بدر موقعا ، فنحن نرى المتنبى يمدحه بعد عودته و يعتذر إليه من هذا القعود ، بل

يستغفره هـذا الذنب فى قصيدة نونية ليست فى نفسها شيئا . ولعـل روحا من السماجة يجرى فيها خفيا حينا وظاهرا حينا آخر . ولـكنا نروى منها هذه الأبيات التى يصرح فيها بذكر حساده وخصومه :

فَطِنَ الفؤادُ لما أتيْتُ إلى النوَى
ولِمَا تركْتُ مخافةً أنْ تَفْطُنا
أضحى فِراقُكَ لى عليه عُقوبةً
ليْسَ الذى قاسيْتُ منهُ هيِّنا
فاغفِرْ فِدًى لك واحْبُنى من بعْدِها
لتخصَّنى بعطِيَّةٍ منها أنا
وانْهَ المُشيرَ عليكَ فىَّ بِضَلَّةٍ
فالحرُّ مُمْتَحَنٌ بأولادِ الزِّنى
وإذا الفتى طرَحَ الكلامَ مُعرِّضاً
فى مَجْلِسٍ أخذَ الكلامَ اللَّذْ عَنى
ومكايِدُ السُفَهاءِ واقِعةٌ بهِمْ
وعداوةُ الشعراءِ بِئسَ المُقْتنى

لعِنَتْ مُقارَنَةُ اللِّئامِ فإنَّها
ضيفٌ يجُرُّ من النَّدامةِ ضَيْفَنَا
غضبُ الحَسُودِ إذا لَقِيتُكَ راضياً
رُزْءٌ أَخَفُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يُوزَنَا

٣

فما الذى هاج الحساد على المتنبى حتى وشوا به عند بدر ، وأخذوا يفسدون ما بينهما ؟ أهو ما قدمناه من أن المتنبى قد برع فى مدح بدر حتى أرضاه ، ومن أن بدراً قد جد فى إعطاء المتنبى حتى أرضاه أيضا ، فنشأ عن هذا ما ينشأ عادة فى نفوس المقربين من الأمراء وأصحاب السلطان ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الكيد لهذا الشاعر الطارئ ، الذى صرف عنهم الأمير شيئا ، وهم حراص على أن يخلو لهم وجهه ؟

ليس من شك فى أن شيئا من هذا قد هاج حسد الحساد على المتنبى ، وقد نستطيع أن نضيف إلى هذا ما يلائم طبيعة البيئة العراقية التى انتقلت مع بدر إلى طبرية . فقد كانت هذه البيئة ماهرة فى الكيد حقًّا ، تعيش فيه كما يعيش السمك فى الماء ، وتفسد حياتها إن خرجت من الكيد أو اضطرت إلى شىء من الصراحة والنقاء . وأيسر نظرة وأعجلها فى حياة القصر البغدادى ، تقنعنا بأن الكيد

كان قوام الحياة حول الأمراء ، وأصحاب المناصب فى ذلك العصر . فليس غريبا إذن أن يشق المتنبى بهؤلاء الكائدين ، وألا يطول ابتهاجه بالإقامة عند هذا الأمير الذى كان يقدر أنه سيلقى عنده الأمن والهدوء وتحقيق الآمال . ولكن يجب أن نلاحظ شيئين ، بل أشياء :

الأول : أن المتنبى كان مفتونا بنفسه ، يظهر ذلك فى شعره وحديثه وسيرته ، ويستعلى على أصحابه عند الأمير .

الثانى : أن المتنبى لم يألف قبل ذلك الوقت معاشرة السلطان ولا حياة القصور ، وإنما ألم بشىء يسير جدًّا من ذلك مع التنوخيين فى اللاذقية ، ثم صرفته عنه المحنة ، ثم عاش مشردا يكسب حياته بمدح أوساط الناس وبالتنقل فى البادية . فلما اتصل ببدر استقبل حياة لم يكن قد هيِّئ لها ، فلم يحسن تعرف ما يحتاج إليه الأمير من شاعره . وليس أدل على ذلك من قعوده عن مصاحبة الأمير فى سفره إلى الإقليم الذى أضيف إليه ، والذى هنأه به المتنبى نفسه .

والثالث : أن الأمير قد أخلص فى حب المتنبى وإيثاره بالخير ، واصطفائه لنفسه ، حتى ألغى الحجاب بينه وبينه ،

واستطاع المتنبى أن يدخل عليه ، وقد حجب نفسه عن الناس [١] . ثم اشترك المتنبى معه فى لهوه وعبثه ومجونه ، ونحن نرى من الديوان أن صاحبنا لم يكن نديمًا يحسن المنادمة ، فهو كان يمتنع على الأمير إذا طلب إليه الشرب ، ولا يستجيب له إلا كارهًا . وهو كان يظهر من ذم الخمر والانصراف عنها مالا يرضى فتى ماجنا لاهيا من فتيان العراق . وكان المتنبى يأتى ذلك فى صراحة لا تعرف التحرّج . ثم إذا ألح الأمير عليه فى الشرب شرب حتى سكر ، وحتى ذهل عما يأتى وعما يقول .

فليس غريبا أن يثقل هذا منه على الأمير ، وأن تنتهز حاشية الأمير الفرصة فتضيف كيداً إلى كيد . وكان المتنبى إذا خلا إلى الأمير فى ساعات لهوه أكثر من ارتجال الشعر لحاجة ولغير حاجة ، يريد أن يبهر الأمير ويسحره ، ويستعلى على حاشيته وندمائه حتى ظنت به الظنون ، وحتى زعم ابن كروس للأمير أنه يصنع هذا الشعر ويهيئه قبل أن يحضر المجلس . فامتحنه بدر فى القصة المعروفة [٢] التى تحدثنا بأنه

(١) انظر الواحدى ص ٢٣٨ .

(٢) « « ص ٢٤٣ .

أحضر لعبة تمثل فتاة قد وقفت على رجل ورفعت رجلها الأخرى وهى تدار على لولب . فإذا وقفت بحذاء أحد من المجلس نقرها فدارت عنه إلى غيره . فقال فيها المتنبى شعرا كثيرا لا يملك قارئه إلا أن يفكر فى أحاديث هوفمان .

وثبت لبدر ولابن كروس أن المتنبى يرتجل حقًّا . وكان المتنبى خليقا أن يكتفى بهذا ، ولكنه سجل انتصاره تسجيلا . وكذلك لم يكن المتنبى يحسن احتمال ما يلقى من الدعابة فضلا عن الكيد ، فكان ذلك يحفظ خصومه ، ويزيدهم مكرا به وحنقا عليه .

وقد أكره المتنبى على الشرب ليلة ، فشرب حتى سكر وذهل عن نفسه ، فلما أصبح غدا على الأمير ، فعرض عليه الشراب ، فقال هذه الأبيات التى تصور غلظته وخشونة طبعه ، وأنه إن صلح للمدح وللمدح الرائع ، فهو أغلظ روحا وأجفى طبعا من أن يصلح لمنادمة الأمراء من أهل العراق :

وَجَدْتُ المُدامةِ غَلّابَةً

تُهَيِّجُ لِلقَلْبِ أشْواقَهُ

تسِيُ من المرْءِ تأْديبَهُ
ولـكن تُحسِّنُ أخلاقَهُ
وأنفسُ ما لِلفتَى لُبُّهُ
وذو اللُبِّ يَـكرَهُ إنفاقَهُ
وقد مُتُّ أمسِ بها مَوْتَةً
ولا يَشتَهِي الموتَ مَن ذَاقَهُ

تقصير فى خدمة الأمير حين يجد الجد ، وقصور عن خدمة الأمير فى أوقات اللهو ، وجهل بحياة القصور ، وامتلاء بالنفس ، وازدراء للأشباه والنظراء ، ومن يدرى ؟ لعل لسان المتنبى لم يكن يستقر فى فمه إذا خلا إلى من كان يظنهم أصدقاءه وأصفياءه . فإذا أضفت إلى هذا كله كيد رجال القصور ، لم تجد غرابة فى أن يفسد الأمير على المتنبى كل الفساد ، وفى أن يتغير عليه قلب بدر ، و يعجز هو عن إصلاح أمره ، و ينظر فإذا هو معرض للغضب ثم للخطر . و إذا هو مخير بين هذا الشر ، و بين شر آخر كان يظن أنه قد استراح منه إلى آخر الدهر وهو الفرار .

٤

وقد فر من جوار بدر فلم يبعد أول الأمر ، وإنما نزل في جبل جرش [١] على صديق له يعرف بأبي الحسن علي بن أحمد الخراساني ، ومدحه بقصيدة أقل ما تدل عليه شيئان : أحدهما أن هذه المحنة الجديدة إن نالت من نفسه فإنها لم تنل من فنه بحال من الأحوال . فالشاعر مالك لأمره كله كعهده في أحسن أوقات الرضى والأمن عند بدر ، لم يضعف فنه ولم يمسسه شيء من هذا الفتور ، بل من هذا الانحلال الذي أدركه بعد أن انجلت عنه محنة السجن . ومعنى هذا أن فن الشاعر كان قد نضج واستحصد ، وانتهى إلى حيث لا تفسده المحن ، ولا تزيده المصائب إلا قوة ونضجاً واستحصاداً

وهذا هو الذي يحملني على أن أخالف بعض الذين أرّخوا المتنبي من المحدثين ولا سيما الأستاذ بلاشير ، فأرد

---

(١) انظر معجم البلدان لياقوت

بعض القصائد التي قالها في مدح جماعة من الأنطاكيين إلى عهد ضعفه وفتوره ذاك قبل أن يلحق ببدر . وسنرى حين نتبع المتنبي في طريقه كلها ، أن المحن قد تضعف عزمه وتؤثر في نفسه ، ولكنها لن تبلغ من فنه إلا مرة أو مرتين ، وسنجد لذلك علله الصحيحة التي ليس بينها و بين المحن صلة ، و إنما هي متصلة بنفس الشاعر أو بالموضوع الذي سيعالجه على غير استعداد للقول فيه . فهذه القصيدة التي نحن بإزائها متقنة كل الاتقان ، تصور الشاعر محتفظا بسلطانه الفني ، وقدرته على تصريف الألفاظ والمعاني كما يريد .

والشيء الثاني الذي تدل عليه هذه القصيدة أن نفس الشاعر قد أوذيت حقًّا بهذه المحنة الجديدة ، وأوذيت في أعماقها . فالشاعر محزون ، ور بما كانت هذه الكلمة أضعف من أن تؤدي ما كان يجد الشاعر من الألم بعد خيبة أمله في بدر ، و إن شئت فقل : إن الشاعر في هذا الوقت كان يجمع في نفسه بين خصلتين متناقضتين ، أو بين خصال متناقضة : فهو قد أحس الذل وانكسرت له نفسه ، واحتمل مالم يتعود أن يحتمل من الضيم ، وهو يجد لذلك لذعا أليما لا يكاد يطيقه .

ثم هو يحس كأن نفسه الأولى قد ثابت إليه ، وكأن عزمه القديم قد راجعه ، وكان شيئا يناجيه من أعماق شبابه الماضى ، يدفعه إلى أن يثور آبيا للضيم نابيا على الذين أرادوا أن يضيموه وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن صغائر الأمور . وأنها أكرم عليه وأشرف عند الناس من أن تطمئن إلى ما أريد بها من الذلة والهوان .

ثم هو بعد هذا كله لم ينس التجربة القديمة ، ولم يغب عنه أثرها فيه وانهزامه لها ، فهو فى حاجة إلى كثير من الحذر والاحتياط ، والمهل والأناة ، لا يكاد يهم بالوعيد والنذير حتى يثوب إلى رشده ، ولذا هو يحول هذا الوعيد والنذير عن وجهه ، ويجعله أداة شعرية يتخلص بها إلى ممدوحه ليس غير . والشاعر فى هذه القصيدة مشغول النفس بهذا الحزن الذى يملأ قلبه عن النسيب والغزل ، وتكلف الصنعة الفنية . فهو إذا أراد أن يمدح لم يقدم بين يدى المدح إلا بهذا الغناء الذى يصور هذه الخصال التى حدثتك عنها آنفاً .

واقرأ معى هذه الأبيات التى يتغنى الشاعر فيها بآلامه وخيبة آماله ، فسترى أن أول ما يتغنى به من ذلك ، إنما هو

الذل الذى أحسه ، والندم الذى يحرق قلبه ، لأنه رضى هذا الذل وأقام عليه :

لا افتِخارٌ إلا لِمَنْ لا يُضامُ
مُـــدْرِكٍ أو محاربٍ لا ينامُ
ليسَ عزماً ما مَرَّضَ المرءُ فيه
ليس هَمًّا ما عاقَ عنه الظلامُ
واحتمالُ الأذَى ورُؤْيةُ جانيـ
ـهِ غِذَاءٌ تَضْوَى به الأجسامُ

كأنه حين أراد أن ينشىء هـــذه القصيدة استوحى شيطانه الشعر ، فأحس أن هذا الشـيطان يريد أن يدفعه إلى الفخر وأن يوحى إليه منه ألوانا كما تعوّد أن يفعل . ولـكن الشاعر لا يرى نفسه أهلا للفخر ولا خليقاً به بعد أن ذاق من الذل ما ذاق ، واحتمل من الضيم ما احتمل ، فهو يمتنع على شيطانه ويأبى أن يتلقى عنه هذا الوحى الذى لا يلائم حاله ، ولا يصور ما يجد فى نفسه . إنما الفخر لمن يأبى الضيم ويمتنع على الذل منتصراً على المحن والخطوب ،

قد ضحى فى هـــذه المقاومة بالراحة والنوم ، وآثر الجهاد والسهاد . وما فعلت من ذلك شيئا و إنما انهزمت للمحنة حين ألمت بى ، وآثرت الراحـة حين أتيحت لى ، وأنا أحس من نفسى عزماً ماضيا وهمًّا بعيدا ، ولـكن ما هذا العزم الذى يقصر صاحبه عن إنفاذه . وما هذا الهم الذى يرتد عنه صاحبه لأول ما يعرض له من العقبات .

كلا ! إنى أحس فى نفسى حاجة إلى شىء غير الفخر . أحس فى نفسى ألما ، وفى جسمى سقما ، وأكاد أندفع إلى أن أشكو وأبكى ، لا إلى أن أفاخر وأكاثر . لقد احتملت الأذى ، ورأيت من كان يجنيه علىّ ويلحقه بى ، فلم أدفع الأذى عن نفسى ، ولم آخذ من جانيه بحقى ، و إنما أذعنت واستكنت ، وآثرت الخضوع والاستسلام .

والشاعر فى هـذا الـكلام صادق اللهجة حقا ، تحس فى شـعره أن فؤاده يتفطر ألما ، وأن صدره يغلى غيظاً وحنقاً :

ذَلَّ من يَغبطُ الذليلَ بعَيْشٍ

رُبَّ عيشٍ أخَفُّ منه الحِمامُ

كلُّ حِلمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقتدارٍ
حُجَّةٌ لاَجئٌ إليهـــا اللِّئامُ
مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الْهَوانُ عَلَيْهِ
ما لجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

وكأن شيطانه قد جعل يعزيه ويسليه ، ويهوّن عليه احتمال الخطْب ، فزعم له أنه لم يحتمل ما احتمل ، ولم يرض ما رضى إلا ليبلغ ما كان يتوق إلى بلوغه من الثروة والأمن وخفض العيش . وكأن شيطانه جعل يذكره بأنه كثيرا ما أنكر أن ينعم الجاهلون ويشقى العاقلون . ثم يتحدث إليه بأن النعمة قد أتيحت له ، فسعى إليها واشتراها بثمنها ، فهو يجيبه بهذا البيت :

ذَلّ مَنْ يَغْبِطُ الذّليلَ بعيْشٍ
رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ منه الحِمَامُ

فإذا عجز شيطانه عن إقناعه من هذه الطريق ، سلك إلى إقناعه طريقا أخرى ، فزين له أنه لم يرض ذلاًّ ولم يقبل ضيما ، وإنما صبر وغفر وآثر العفو والحلم ، ولكن

هـذا الباطل لا يخدع الشاعر عن نفسه ، ولا يشغله عما يملأ قلبه من ندم ولوعة ؛ فهو يعلم حق العلم أنه لم يؤثر عفوا ولا حلما ، وإنما كان عاجزاً عن أن ينتقم لنفسه . ولن يكون الرضا حلما ، حتى تصحبه القدرة على الجهل ، ولن يكون الإغضاء عفواً حتى تصحبه القوة على البطش :

كلُّ حِـلمٍ أتَى بِغيرِ اقتدارٍ

حُجَّةٌ لاجئٌ إليهـا اللِّئامُ

كلا ! إن النفس لم تصغر عليَّ إلى هذا الحد ، وإنى لم أيأس منها بعد ، وإنما أنا أجد بقية من الأمل وفضلا من الرجاء ! لست أحس الألم لما أدركنى من مساءة . لو كانت نفسى هينة لسهل عليها احتمال الهون ، كما أن الميت لا يؤذيه ما يلحق جسمه من جراح .

ثم يثب الشاعر من هذا الضعف والانحلال ، ومن هذا اللوم الذى كان يغمر نفسه به إلى شىء جديد من الأمل والنشاط ، بل إلى أكثر من الأمل والنشاط . فقد فتح له باب الرجاء ، واستيقن أنه ما دام لم يرض الذل ولم يحتمله

راضياً به غير متألم له ، فهو خليق أن يعرف نفسه وأن يسلك طريقه إلى المجد . فقد يكبو الجواد ، ولكنه ينهض من كبوته . وصاحبنا لا ينهض ، وإنما يثب وثوباً ، وإذا هو يسترد كبرياءه كلها ، وإذا هو يطاول الزمان ويغالب الدهر ، وإذا هو ينتهي من ذلك إلى سخفه الماضي وضلاله القديم :

ضاقَ ذَرْعًا بأنْ أَضِيقَ به ذَرْ
عًا زماني واستكرَمَتْنِي الكِرامُ
واقِفًا تحتَ أخمَصَيْ قَدْرِ نَفْسِي
واقفاً تحتَ أَخمَصَيَّ الأنامُ

وما دام قد استرد كبرياءه كله وبدت له نفسه كما يراها ، فهو أعظم وأكرم وأشد بأسا ، وأمضى عزماً من أن يقر على ما أريد عليه من الهوان . وإذا هو يندفع إلى الوعيد كعهده قبل أن يجاوز العشرين :

أَقرارًا أَلَذُّ فوقَ شَرارٍ
ومَرَامًا أَبغِي وظُلْمِي يُرامُ
دُونَ أَنْ يَشْرَقَ الحِجازُ ونَجْدٌ
والعِراقانِ بالقَنا والشامُ

ولـكن بقية من عقل له أو لشيطانه ترده إلى الصواب ، وتحمله على الحذر والاحتياط . و إذا هو يعدل بهـذا الوعيد المخيف إلى المدح فيقول :

شَرِقَ الجَوُّ بالغُبارِ إذا سا

رَ عَلِيُّ بنُ أَحْمَـــدَ القَمْقامُ

وكأنه قد أحس أن بدراً يجدُّ فى طلبه مغيظا من هذا الهرب ، أو مغيظا من هذه القصيدة التى انتهت إليه .

ومن يدرى ؟ لعل بدراً لم يطلبه ولم يحفل به ، و إنما لعب الخوف بنفسه فظن أنه مطارد مطلوب . فلم يطل المقام عنـد صاحبه ، ولم ينعم عنده بأمن ولا راحة ، و إنما أعجل حتى عن وداعه واستئذانه فى الرحيل عنه ، ففر ، وقال معتذراً :

لا تُنكِرَنَّ رَحِيلِي عنكَ فى عَجَلٍ

فإنّنى لِرَحيـــلى غيرُ مُختارِ

ورُبَّما فارَقَ الإنسانُ مُهْجَتَهُ

يَومَ الوَغَى غيرَ قالٍ خَشْيَةَ العارِ

وقد مُنيتُ بحُسّادٍ أُحارِبُهُم

فاجْعَلْ نداكَ عَلَيهِمْ بَعضَ أنصارى

ومهما يكن من شيء فقد دفع أبو الطيب إلى تلك الحياة البغيضة التى اصطلى آلامها ثلاثة أعوام أو أربعة قبل أن يتصل ببدر . فهو الآن مشرد ، يتنقل فى البادية خائفاً من السلطان ، لا يستطيع أن يدنو من أرض الاخشيديين . وقد كان بينه وبينهم ما انتهى به إلى سجن حمص . وقد كان منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر بن عمار ، ولا يستطيع أن يدنو من أرض ابن رائق فى الشام وأعالى الفرات ، وهو طريد بدر . وبدر كما رأيت أثير عند ابن رائق مقرب إليه . فليس له إذن أن يهيم فى البادية مخفيا نفسه على البدو ، ويستتر فى الحاضرة إن ألم بها منكراً نفسه على الحضر ، قد لفظته الأرض ، وضاقت به الدنيا ، وهو يصور لنا هذا أجمل تصوير وأروعه ، كما يصور لنا سخطه على الذى جنوا عليه هذه المحنة الثانية وذلك فى رائيته التى يقول فيها :

عَذِيرِى من عَذارَى من أُمور
سَكَنَّ جَوانِحى بَدَلَ الخُدُورِ
ومُبْتَسِماتِ هَيْجاوَاتِ عصرٍ
عَنِ الأَسْيافِ ليسَ عن الثُّغُور

رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمِي إليها
وكلَّ عُذافِرٍ قَلِقِ الضُفُورِ

أواناً في بُيوتِ البَدْوِ رَحْلِي
وآونةً عَلَى قَتَدِ البَعِيرِ

أُعَرِّضُ لِلرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِي
وأنصِبُ حُرَّ وَجْهِي للهَجِيرِ

وأسْرِي في ظَلامِ الليلِ وَحْدِي
كأني منه في قَمَرٍ مُنِيرِ

فقُلْ في حاجةٍ لم أَقْضِ منها
عَلَى تَعَبِي بها شَرْوَى نَقِيرِ

ونفسٍ لا تُجِيبُ إلى خَسِيسٍ
وعَيْنٍ لا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ

وكَفٍّ لا تُنازِعُ مَنْ أَتاني
يُنازِعُنِي سِوَى شَرَفي وخِيرِي

وقِلَّةِ ناصرٍ جُوزِيتَ عَنِّي
بِشَرٍّ منكَ يا شَرَّ الدُّهورِ

عَدُوِّى كلُّ شىء فيكَ حَتَّى
خِلتُ الأُكْمَ مُوغرَةَ الصُدُورِ
فلو أنِّى حُسِدتُ عَلَى نفيسٍ
لَجُدْتُ به لِذِى الجَدِّ العَثُورِ
ولـكنِّى حُسِدتُ عَلَى حَياتِى
وما خَـيْرُ الحياةِ بلا سُرُورِ

فأنت ترى فى هذه القصيدة اعترافه بالخيبة واستسلامه للمحنة ، وضيق نفسه بما يلقى من الشر ، ويأسه من تحقيق الأمل ، ولـكنه مع ذلك حفيظ على كرامته ، حريص على عزته ، لا يريد أن ينزل عن شرفه مهما تكن الأحداث . ثم هو يعدل إلى خصمه ابن كروس فيهجوه بهذه الأبيات اللاذعة :

فَيا ابْنَ كَرَوَّسٍ يا نِصفَ أعْمَى
وإن تَفْخَرْ فيا نصفَ البَصيرِ
تُعادِينا لأنّا غَـيْرُ لُـكْنٍ
وتُبغِضُنا لِأَنّا غَـيْرُ عُورِ
فلو كنتَ امْرأً يُهْجَى هَجَوْنا
ولـكنْ ضاقَ فِترٌ عن مَسيرِ

٥

فماذا صنع المتنبى أثناء هذا الهرب ولم لبث مستخفيا ؟

لم يصنع شيئا ذا خطر فيما يظهر ، وإنما كان يلتمس النجاة ، فإذا ظفر بها التمس الأمن . وكان فى أثناء ذلك كثير الرجوع إلى نفسه ، ممعن التفكير فيما امتلأت حياته به من البؤس والشدة والشقاء .

وما أكاد أشك فى أن هذه المحنة الثانية قد أثارت فى نفسه ندما شديدا على ما أظهر من ضعف وخور ، ولعلها أحيت فى نفسه حنينا إلى الشباب ، وإلى ما كان فى الشباب من هذه النزعات القرمطية التى إن جرّت عليه محنا وجشّمته أهوالاً ، فقد كانت تشعره العزة والأنفة ، وتجعل لحياته وآلامه غاية سامية وغرضا شريفا .

ومن يدرى ؟ لعل هذا كله قد رده أو كاد يرده إلى قرمطيته الأولى ، ومهما يكن من شىء فأنا أرجح أنه فى أثناء هذا الاضطراب فكّر فى وطنه الأول غير مرة ،

وعرض له خيال جدته تلك التى طال بُعده عنها وفراقه لها .

وما أرى إلا أن هيامه فى الأرض واضطرابه فى البوادى قد دفعاه إلى العراق ، وأنه همّ أن يدخل الكوفة للقاء جدته فلم يستطع ، لتلك الأسباب الغامضة التى تساءلنا عنها فى بدء هذا الحديث .

فانحدر إلى بغداد فيما تقول القصة ، أو لم ينحدر إليها فى أغلب الظن ، ولكنه كتب إلى جدته على كل حال لأنه هو ينبئنا بذلك فى قصيدته .

كتب إليها ينبئها بمقدمه أو بعجزه عن دخول الكوفة ويستقدمها للقائه . فلما انتهى كتابه إلى هذه الشيخة البائسة فرحت به ، فقتلها الفرح ، أو فرحت به فأخذت تقبله وتلح فى تقبيله باكية ، ودموعها تنهمل على الكتاب فتذيب المداد ، ولعل المداد هو الذى قتلها .

ومهما يكن من شىء فقد انتهى إلى المتنبى موت جدته ، فرثاها بهذه القصيدة التى روينا لك طرفاً منها فيما مضى ، والتى تصوره كما رأيت وكما تستطيع أن ترى من إعادة النظر فيها قرمطيا غاليا فى قرمطيته كأنه قد عاد إليها ،

وكاد يتورط فيها لولا أن هتفت به تجربته الأولى ، فأعادت إليه الحذر والاحتياط . وأنا أستغفر عشاق المتنبى والمؤمنين بشجاعته وإقدامه إن قلت إن المتنبى لم يصور أحداً كما صور نفسه فى هذا البيت المشهور :

وإذا ما خَلاَ الجَبَانُ بأرْضٍ
طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه والنِّزالا

على أن الزمان الذى أسرف المتنبى فى ذمه قد أشفق على أبى الطيب من محنته هذه الثانية ، وكره له أن يتورط فى اليأس فيندفع إلى مثل ما اندفع له فى محنته الأولى . فلم يكد يمضى فى هربه عاماً أو بعض عام ، حتى تغير وجه السياسة فى بلاد الشام ، وفتح للهارب المستخفى باب من أبواب الفرج . فهذا ابن رائق فى أواسط سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، قد ترك الشام وعاد إلى بغداد ، وتركها معه بدر بن عمار ، ورفع الحرج الثقيل عن المتنبى ، وأصبح يستطيع أن يتنفس فى شىء من الحرية والأمن . فإلى أين ذهب ؟ وماذا صنع ؟

سؤال لا نظفر له بجواب واضح فيما بين أيدينا من

شعر المتنبى ، ولا فيما تحدث به الرواة .

على أن سنة ثلاثين وثلاثمائة لا تكاد تتقدم حتى يقتل ابن رائق ، يقتله ناصر الدولة أخو صديقه ومولاه بعد حين ، سيف الدولة الحمدانى . هنالك ينهض الاخشيد لاسترجاع الشام ، وهنالك يظهر المتنبى فى غير إسراف فى التحفظ ، وأكبر الظن أنه لم يظهر ولم يدخل مدن الشام جهرة ، ولم ينشر فيها شعره مستظلا بظل الاخشيديين إلا بعد أن سعى فى ذلك فأطال السعى ، وجد فى ذلك فأمعن فى الجد . ونحن نراه يتقرب بشعره إلى عمال الدولة الاخشيدية وأصحاب المناصب المدنية والعسكرية فيها . وما أظن إلا أنه قد قال فى هذه المدة شعراً كثيراً مختلفاً ، تقرب به إلى أشخاص كثيرين مختلفين أيضا ، ولكنه ألغاه فيما بعد إلغاء ، مبتغيا مرضاة سيف الدولة ، كما يظن بلاشير أو مستخذيا من كثرة ما فيه من الاستعطاف الذى لم يكن يلائم مجده حين كان يملى شعره فى حلب ، أو فى الفسطاط ، أو فى بغداد . على أن ديوانه يحفظ لنا شيئا من هذا الشعر الذى تقرب به إلى عمال الاخشيديين . ونحن نذكر من هذا

الشعر قصائد خمسا ، هى على كل حال من جيد شعره وأرقاه .

الأولى : رائيته المشهورة التى يمدح بها على بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، ولعله كان عاملا للاخشيديين على أنطاكية والتى مطلعها :

أُطاعِنُ خَيْلاً من فوَارِسِها الدهرُ
وَحِيدًا وما قَوْلِي كذا ومَعى الصَّبْرُ

وهى كما ترى بريئة من النسيب ، فإذا مضيت فى قراءتها رأيت الفخر الجزل الذى يصور غروراً وفتونا أكثر مما يصوّر شجاعة وحزما . ولكنى أقف من هذه القصيدة عند هذين البيتين اللذين يصل فيهما المتنبى إلى موسيقى تعجبنى ولعلها تعجبك ، وهما قوله :

ويَوْمٍ وَصَلْناهُ بِلَيْلٍ كأنما
عَلَى أُفْقِهِ من بَرْقِهِ حُلَلٌ حُمْرُ
ولَيْلٍ وَصَلْناهُ بِيَوْمٍ كأنما
عَلَى مَتْنِه من دَجْنِهِ حُلَلٌ خُضْرُ

وأقف كذلك عند هذا البيت الذى أرى فيه تعريضا بالمستأثرين بالأمر فى العراق :

وجَنَّبَنِى قرْبَ السَّلاطينِ مَقْتُها

وما يقتَضِينى من جَماجِمِها النسْرُ

وهؤلاء السلاطين هم أهل الجور الذين أنذرهم فى بيت مضى من هذه القصيدة ، وهو قوله :

عَلَىَّ لِأَهْلِ الجَوْرِ كلُّ طِمِرَّةٍ

عليها غُلامٌ مِلْءُ حَيْزُومِه غَمْرُ

أما القصيدة الثانية فبائيته التى يمدح بها على بن محمد ابن سيار بن مكرم التميمى والتى أولها :

ضُرُوبُ الناسِ عُشَّاقٌ ضُرُوبا

فأَعْذَرُهُمْ أَشَفُّهُمُ حَبِيبا

وكان هذا الرجل — فيما أرجح — من رجال الحرب . والديوان ينبئنا بأنه كان يحسن رمى النشاب . وأحب أن تقف من هــذه القصيدة عند مقدمتها ؛ فهى تنقسم إلى قسمين :

أحدهما وهو القسم الأول يصف الحرب وقتل الأعداء وصفا رائعا ، وما أرى إلا أنه يشير إلى انتصار الاخشيديين

على أصحاب ابن رائق وطردهم عن بلاد الشام .

والقسم الثانى من المقدمة غناء حزين يذكر فيه المتنبى سوء حاله النفسية وضيقه بالحساد و بغضه للحياة ، لأنهم يشاركونه فيها . وهو فى هذا الغناء يصف الليل ونجومه أجمل وصف وأروعه وأرقاه .

والقصيدة الثالثة داليته التى مدح بها هذا الرجل نفسه ، والتى مطلعها :

أَقَلُّ فَعالى بَلْهَ أكثرهُ مَجْدُ
وذا الجِدُّ فيهِ نلتُ أوْ لم أنَلْ جدُّ

وما أرى إلا أنه قد احتذى بهذه القصيدة دالية الحطيئة :

ألا طرَقَتْنا بعدَما هجعوا هِنْدُ
وقد سِرْنَ خمسًا واتْلأَبَّ بنا نَجْدُ

فأحسن الاحتذاء والتقليد . والشاعر فى هذه القصيدة كعهده فى أيام الراحة والأمن ، معجب بنفسه كل الاعجاب ساخط على الناس كل السخط . واقرأ هذه الأبيات التى تصور سخطه على الناس ، بل غلوه فى هذا السخط ، والتى هى من أجمل شعر المتنبى لألوان التشاؤم التى ستنبثّ

فيما سيقول من الشعر إلى أن يموت :

أَذُمُّ إلى هذا الزمان أُهَيْلَهُ

فأعلمُهُمْ فَدْمٌ وأَحْزَمُهُمْ وَغْد

وأكرمُهُمْ كَلبٌ وَأبصرُهم عَمٍ

وأسْهَدُهُم فَهْدٌ وأَشْجَعُهُمْ قِردُ

ومِن نكدِ الدُنيا على الحُرِّ أن يَرى

عَدُوًّا لهُ ما من صَداقتِهِ بُدُّ

أما القصيدة الرابعة ، فالزائية التى مدح بها أبا بكر على بن صالح الروذبارىّ ، ولعله كان عامل الاخشيد على دمشق ومطلعها :

كَفِرِندِى فِرِنْدُ سَيفِى الجُرازِ

لذَّةُ العينِ عُدَّةٌ لِلبِرازِ

ويقال — ويقبل بلاشير هذا القول (١) — إن المتنبى قد ظفر بما كان يريد ، فلقى محمداً الاخشيد فى دمشق وأنشده ، وأخذ جوائزه وظن أنه قد انتهى إلى

---

(١) بلاشير R. Blachère صفحة ١١٠ .

تحقيق أمله ، ولكن الأيام كذبت ظنه ، فمات الاخشيد في دمشق سنة أربع وثلاثمائة ، قبل أن يتم اتصال شاعرنا به . والذى أثار هذا القول فيما يظهر أبيات رويت فى الصبح المنبى من قصيدة زعموا أن المتنبى رثى بها الاخشيد وهى :

هُوَ الزَمانُ مُشِتٌّ بالذى جَمَعا
فى كُلِّ يَوم تَرَى مِنْ صَرفِهِ بِدَعا
إن شِئتَ مُتْ أَسَفًا أو فابْقَ مُضطَرِباً
قد حَلَّ ما كُنتَ تَخشاهُ وقد وَقَعا
لو كانَ مُمتَنِعٌ تُغنيهِ مَنعتُهُ
لم يَصنعِ الدَهْرُ بالاخشيد ما صَنَعا

ولم يرو صاحب الصبح من القصيدة إلا هذه الأبيات . أما أنا فأرجح أن المتنبى لم يلق الاخشيد ، ولم يطمع فى لقائه ، فقد كان همه فى ذلك العصر أيسر من هذا وأهون ، ولو قد لقى الاخشيد لما قصر فى ذكر ذلك والافتخار به ، والموازنة بين الاخشيد وبين مولاه كافور ، ولا سيما حين غضب على كافور . وأنا أرى أن هذه القصيدة الزائية

د قيلت فى وقت متأخر شيئا كما سترى .

أما القصيدة الخامسة ، فالدالية التى يمدح بها الحسين ابن على الهمدانى فيما يقول الديوان (١) ، أو المرى الخراسانى فيما يستظهر بلاشير (٢) ، وفيما يفهم من القصيدة نفسها وأولها :

لقد حازَنى وجدٌ بمَن حازَهُ بُعْدُ

فيا ليتَنِى بُعْدٌ ويا لَيْتَهُ وَجدُ

وإذن فقد جعل المتنبى يتقرب شيئا فشيئا إلى عمال الاخشيديين فى شمال الشام ، وهؤلاء يقبلون مدحه ويجيزونه ويقربونه إلى أمثالهم فى الجنوب ، حتى انتهى إلى عامل دمشق ثم إلى الحسين بن على هذا . ولعله كان فى طبرية أو قريبا منها حيث كان أبوه ، وانتهى آخر الأمر إلى أمير من أمراء الاخشيديين كان يقيم فى الرملة عاملاً عليها ومتوليا فى أكبر الظن لفلسطين . فألقى عصاه واستقرت به النوى عند هذا الشاب ، وهو قريب من مصر ، ولكنه بعيد عنها . قريب

---

(١) انظر الواحدى ص ٣١٠

(٢) انظر بلاشير R. Blachère صفحة ١٠٠ — ١٠١ — ١١٠ وانظر كذلك معجم البلدان لياقوت مادة جرش .

من مصر يمدح عمالها وبعض أمرائها ، ولكنه بعيد عنها لم يمدح صاحبها أنوجور ولا وصيها كافور . وقد انتهى المتنبى إلى الرملة وظفر بحماية هذا الأمير الشاب وهو فى الثانية والثلاثين من عمره .

وقد لقى أهوالا وهموما ثقالا وآن له أن يستريح .

٦

على أنه لم يسترح وقتا طويلا فقـد انتهى إلى أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فى الرملة فى أوائل سـنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فى أكبر الظن . ورحل عنه فى هذه السنة نفسها بعد أن أقام عنده أشهرا . وما أرتاب فى أن نفسه منّته أن يتجاوز الرملة إلى مصر ، ثم إلى الفسطاط ، وأن يتصل هنالك بالملك أو بالوصى . وما أرتاب فى أنه كان خليقا أن يحاول ذلك و ينفذه ، لولا أن الأمور السياسية قد جرت على ما حبب إليه الانصراف عن مصر والرجوع إلى شمال الشام .

فلننظر قبل كل شىء هـذه الميمية التى مدح بها الأمير الاخشيدى الشاب . فهى من جياد قصائده ، وهى فى الوقت نفسه تصور لنا تردده بين مصر والشام تصويرا إن يكن بعيدا فإنه مع ذلك واضح جلى .

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول نسيب مصنوع متكلف كأكثر ما رأينا

وما سنرى من نسيب المتنبى ، والتكلف ظاهر لا فى معناه وحده ، بل فى معناه ولفظه أيضا . ويكفى أن تقرأ المطلع لتحس التكلف اللفظى والمعنوى :

أَنا لائمى إِن كُنتُ وَقتَ اللَوائِمِ
عَلِمتُ بِما بى بَينَ تِلكَ المَعالِمِ

فانظر إلى هذه الألف التى أثبتها فى الضمير أول البيت ليقيم الوزن . وانظر إلى هذا الحذف الذى اصطنعه بين المضاف والمضاف إليه فى آخر الشطر الأول ليقيم الوزن أيضا . فقد كان حقه أن يقول :

إن كنت وقت لوم اللوائم

والشاعر يذهب مذهب أبى تمام فى هذه الملاءمة اللفظية بين لائمى واللوائم ، و بين علمت والمعالم ، ولكنه يعجز عن أن يبلغ ما كان يبلغه أبو تمام من العذوبة اللفظية التى تحبب إلى السامع والقارئ هذا الفن من البديع . وأنت واجد هذا التكلف الظاهر فيما يلى المطلع من الأبيات . بل أنت واجد فيها ذوقا غليظا يصنع الحب والغرام صنعا ، ويريد أن يكره أذواق الناس على قبول ما يصنع . ولكن قف عند هذين

البيتين اللذين وجدا من يعجب بهما إعجابا شديداً :

حِسانُ التثنّي يَنقُشُ الوشْيُ مِثلَهُ
إذا مِسْنَ فى أجسامِهِنَّ النواعِمِ

وَيَبسِمْنَ عن دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثلهُ
كأنَّ التَّراقِي وُشِّحَتْ بالمباسِمِ

فما رأيك فى هذه الأجسام التى رقت أبشارها ، وأسرفت فى الرقة حتى أن الوشى لينقش فيها حين تتثنى أو تميس . وما رأيك فى هذه التراقى التى كأنها حليت بالثغور ، لا لشىء إلا لأن بين الأسنان التى تبسم عنها الثغور و بين الحلى الذى تحمله الصدور شبها فى الرونق والصفاء . أما أنا فلا أرى فى هذا التشبيه إلا إغرابا ينتهى إلى السماجة .

أما القسم الثانى من القصيدة فهو غناء أدنى إلى الفخر ، وقد ألف المتنبى هذا النوع من الغناء والفخر ، حتى أصبح من الحق عليك أن تألفه وألا ترى فى ذكر المتنبى للحرب والبأس إلا وسيلة شعرية رأى المتنبى أنها تعجب الناس وتلائم حياة أهل الشام ، كما تلائم ميله وطبيعته . فأسرف فيها إسرافا شديدا . ولكن قف عند هذه الأبيات :

فمالى وللدُّنيا طِلابى نُجومَها
ومَسْعاىَ منها فى شُدُوقِ الأراقِمِ

مِنَ الحِلْمِ أَنْ تَسْتَعمِلَ الجهلَ دُونَهُ
إذا اتَّسعت فى الحِلْمِ طُرْقُ المظالمِ

وأَنْ تَرِدَ الماءَ الذى شطرُهُ دَمٌ
فتسْقَى إذا لم يُسْقَ مَن لم يُزاحِمِ

فأنت واجد فيها طبيعة المتنبى كلها التى سيصورها شعره إلى آخر ديوانه : جوع وأحاديث ، كما يقول المثل . وفلسفة فى الهواء ليس وراءها طائل ولا غناء .

ويمضى الشاعر حتى يبلغ صاحبه ، فيمدحه مدحا لا بأس به ، ليس خيرا ولا شرًّا مما ألفناه من مدحه للذين مدحهم ، غير بدر بن عمار ، حتى يصل إلى وصف الجيش فيحسن إحساناً ظاهراً فتن المتقدمين . وما أرى إلا أن تأثير بشار فيه ظاهر جدًّا ، وذلك قوله :

وَذِى لَجَبٍ لاذُو الجَناحِ أَمامَهُ
بناجٍ وَلا الوحشُ المُثارُ بسالمِ

تَمُرُّ عليهِ الشَمسُ وَهْىَ ضعيفةٌ
تُطالِعهُ من بَين رِيشِ القَشاعِمِ

إذا ضوءها لاقَى من الطَيرِ فُرْجَةً
تدَوَّرَ فوق البَيْضِ مِثلَ الدراهمِ

وَيَخْفَى عَلَيكَ الرَعْدُ والبَرْقُ فَوْقَهُ
من اللمعِ فى حافاتِهِ والهماهمِ

ثم اقرأ هذه الأبيات الثلاثة :

أرى دونَ ما بَيْنَ الفُراتِ وبَرْقَةٍ
ضِراباً يُمَشِّى الخيلَ فوقَ الجماجمِ

وطعْنَ غطاريفٍ كأنَّ أكُفَّهُمْ
عرَفْنَ الرُدَيْنيَّاتِ قبل المعاصِمِ

حَمَتْهُ على الأعداءِ من كل جانبٍ
سيوفُ بنى طغجٍ بن جُفِّ القماقمِ

فإن لها خطرها . فالمتنبى يشير فيها إلى ما كان من محاولة سيف الدولة أن يغير على جنوب الشام منتهزا موت الاخشيد ، لينقض ما كان قد تم بينهما من الصلح ، وما كان

من نهوض كافور لرده عن ملك الاخشيديين ، و إلزامه الحدود التى تم عليها الصلح مع الاخشيد . وما أتردد فى أن المتنبى كان ينتظر عاقبة هذه الحرب بين كافور وسيف الدولة ، ليمضى إلى مصر ، أو ليرجع إلى شمال الشام . ولعله كان يقدر أن كافوراً لن يكتفى بإكراه سيف الدولة على رعاية الصلح ، بل سينتهز الفرصة ليسترد شمال الشام ، ويمحق الحمدانى محقا . ولو قد فعل لما أبطأ المتنبى عن اللحاق به ومحاولة الانقطاع إليه ، ولكن كافوراً لم يزد على أن حمى المعاهدة واضطر سيف الدولة إلى رعايتها ، واحتفظ بالحدود التى أقرها الاخشيد .

وإذن فقد استقرت فى شمال الشام دولة عربية يظهر أنها قوية شديدة البأس ، مستقرها حلب لن يستطيع أولو الأمر فى بغداد أن يصلوا إليها لمكان ناصر الدولة فى الموصل . فالمتنبى متردد الآن بين الفسطاط ، حيث كافور الأسود وأنوجور التركى ، وبين حلب حيث الملك العربى الفتى ، وحيث البيئة العربية الخالصة . وقد أنفق المتنبى وقته عند هذا الأمير الاخشيدى الشاب فى الرملة ، منتظرا ومتفكرا

وكأنه قد انتفع بما لقى عند بدر بن عمار من المحنة ، وتعلم شيئا من حيـاة القصور ، ومعاشرة الأمراء . فهو ينادم الأمير الشاب منادمة الشاعر الفطن اللبق ، الذى يعرف هوى سيده فيسبق إليه ، والذى يحسن التملق ويسرف فى المدح ، وينزل عنـد رغبة مولاه يقول الشـعر حين تدعو الحاجة إلى قوله ، وحين لا تدعو إليـه حاجة . يكره الخمر ولـكنه يشربها إذا قال له سيده بحقى لتشربن هذه الـكأس . ثم لا يتحرج أن يقول هـذا الشعر الذى قد يرضى الأمير الشاب ، ولـكنه يغضب الله ويغض من المروءة :

سقَانى الخَمرَ قولُكَ لى بحَـقّى
ووُدٌّ لم تَشُـبْهُ لى بِمَذْقِ
يَميناً لو حَلَفتَ وأَنتَ تأْتِى
عَلَى قتْـلِى بها لَضَرَبتُ عُنْقى

ثم يأخذ الـكأس ويقول :

حُيِّيتَ مِن قَسَمٍ وأَفدى مُقسِما
أَمسَى الأَنامُ لَهُ مُجِـلاً مُعْظِما

وإذا طَلَبتُ رِضَى الأمير بِشُرْبِهَا
وَأَخذتُها فَلَقَدْ تَرَكتُ الأحْرَمَا

ولم يقصر المتنبى فى خدمة سيده الجديد ، فهو يغدو عليه مع الصبح ، ويروح إليه مع المساء ينادمه إذا استقر ويصحبه إذا انتقل إلى مكان قريب أو بعيد . ويحدثه ويحدث أصحابه بما يسليهم ويرضيهم ، وبما يفزعهم ويزعجهم أحيانا كالذى كان حين حدثهم عما رأى من إغارة القرامطة على الكوفة فى صباه ، فجزع الناس لهول ما سمعوا . فقال المتنبى هذه الأبيات التى تدل على أنه لم يصدف عن القرمطية إلا كارهاً :

أَباعِثَ كُلِ مَكْرُمَةٍ طَمُوحِ
وفارسَ كُلِّ سَلهَبَةٍ سَبُوحِ
وَطاعِنَ كُلِّ نَجْلاءَ غَمُوسِ
وعاصِيَ كُلِ عَذَّالٍ نَصِيحِ
سَقانى اللهُ قَبلَ الموتِ يوماً
دَمَ الأعداءِ من جوفِ الجُرُوحِ

وكأن المتنبى قد اكتفى بهذه المنادمة ، وما كان يرتجل فيها من هذا المدح القصير ، ولكن الأمير كان يريد قصائد طوالا كالميمية . فعاتب المتنبى فى إعراضه عن مدحه ولم ينشط المتنبى لهذا المدح ، فاعتذر إليه بهذه الأبيات :

تَرْكُ مَدْحيكَ كالهجاءِ لِنَفْسِي
وقليلٌ لكَ المَدِيحُ الكثِيرُ
غيرَ أنى تركتُ مُقتضَبَ الشِّعـ
ـرِ لأمرٍ مِثلى بهِ معذورُ
وسَجاياكَ مادِحاتُكَ لا لفْـ
ـظِى وجُودٌ عَلَى كلامى يُغيرُ
فسَقَى اللهُ مَن أُحِبُّ بِكَفَّيـ
ـكَ وأسقاكَ أيُّهذا الأميرُ

وكان قريبا من هذا الأمير الشاب رجل من أشراف العلويين يعرف بأبى القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى . وكان أثيرا عند الأمير ، وكان يرغب فى أن يمدحه المتنبى ولا يبلغ من ذلك ما يريد فتوسط له الأمير عند الشاعر ،

وقبل الشاعر بعد امتناع . وهى فيما نرى أول مرة يحس المتنبى فيها أنه قد عظم فى أعين الناس وفى أنفسهم . وقد مدح هذا العلوى بالبائية التى مطلعها :

أَعِيدُوا صبَاحى فَهْوَ عِندَ الكَواعِبِ
ورُدُّوا رُقادِى فَهْوَ لحظُ الحَبائِبِ

والتى لا أقف منها إلا عند قوله :

أتانى وَعِيدُ الأَدعياءِ وأَنَّهُمْ
أَعَدُّوا لىَ السُودانَ فى كَفْرِ عاقبِ
ولو صَدَقوا فى جَدِّهِم لَحَذِرْتُهُمْ
فهل فىَّ وَحْدِى قولُهُم غيرُ كاذِبِ
إلىَّ لَعَمْرِى قصدُ كُلِّ عجيبةٍ
كأنى عَجيبٌ فى عُيونِ العَجائبِ

وهؤلاء الأدعياء هم الذين عرض بهم فى ميميته التى حللناها آنفا حيث يقول :

وفارقتُ شرَّ الأَرضِ أَهلاً وتُربةً
بها عَلَوِىٌّ جَدُّهُ غيرُ هاشِمِ

بلا اللهُ حُسَّادَ الأمــيرِ بِحِلْمِهِ

وأجلَسَهُ منهم مَكانَ العَمائمِ

وكأن هذا العلوى وأصحابه كانوا فى طبرية وكأنهم كانوا شيعة للفاطميين يخفون بغضهم للاخشيد ، وكأنهم كرهوا من المتنبى قرمطيته القــديمة وقصده إلى الاخشيدى فى ذلك الوقت ، فأرادوا أن يصدوه عن الرملة وأرصدوا له السودان ليردوه أو ليقتلوه .

وأقف كذلك من هذه البائية عنــد هذا الشعر الذى يصور استهانة المتنبى بالدين ، وتلونه فى الرأى . وذلك قوله :

وأبهَرُ آياتِ التهامىِّ أنَّهُ

أَبُوكَ وأَجدَى ما لـكُم من مَناقِبِ

وواضح أن أبهر آيات النبى إنما هو القرآن لا أبوته للعلويين . ولا تقف عند تمحل الشراح لهذا البيت فإنه اعتذار لا غناء فيه ثم يقول :

إذا لم تَــكُنْ نفْسُ النَسيبِ كأصلِهِ

فماذا الذى يُغنِى كِرامُ المناصِبِ

وما قَرُبتْ أَشـباهُ قَومٍ أباعِدٍ

ولا بَعُـدتْ أَشباهُ قَومٍ أَقارِبِ

إذا عَلوِىٌّ لم يَكُنْ مِثلَ طاهِرٍ

فما هُوَ إِلاّ حُجَّةٌ للنَواصِبِ

وفى هذا الكلام تعريض ظاهر بالفاطميين ثم يقول :

هُوَ ابنُ رسُولِ اللهِ وابنُ وصِيِّهِ

وشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بعْدَ التجَارِبِ

وقد عاد المتنبى هنا شيعة علويا كما كان فى بغداد حين مدح فى صباه محمد بن عبيد الله العلوى بداليته التى وصفناها فى أول هذا الحديث .

فالمذاهب السياسية والدينية عنـد المتنبى وسيلة لا غاية كما ترى ، وفى أثناء هـذا الوقت كله استقر الأمر بين كافور وسيف الدولة على الصلح الذى أمضاه الاخشيد قبل أن يموت ، واستقر رأى المتنبى على أن يعود إلى البيئـة العربية فى شمال الشام ، بعد أن كان يبغض هـذه البيئة أشد البغض ، ولا يعود إليها ولا يقيم فيها إلا كارها . وقد

استأذن أميره الشاب فى الرحيل فأذن له . وانصرف المتنبى مودعا إياه بقصيدة لم يحفظ الديوان منها إلا هذه الأبيات :

ماذا الوداعُ وداعُ الوامِقِ الـكَمِدِ
هذا الوداعُ وداعُ الرُوحِ لِلجَسَدِ
إذا السَحابُ زَفَتْهُ الرِيحُ مُرْتَفِعاً
فلا عدَا الرَملةَ البَيْضاءَ من بَلَدِ
ويا فِراقَ الأميرِ الرَحْبِ مَنزلُهُ
إنْ أنتَ فارَقتنا يوماً فلا تَعُدِ

٧

مضى المتنبى من الرملة حتى انتهى إلى طرابلس فى طريقه إلى شمال الشام ، وما كان يقدر أنه سيلقى فى هـذه المدينة ما يؤخر سفره إلى حيث يريد . وما كان يقدر بنوع خاص طبيعة هذا العائق الذى سيمسكه فى طرابلس حينا . هو الآن فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره ، واختلفت عليه أحداث وخطوب منذ خرج من السجن لم ينتصر عليها و إنما انتصرت عليه . ولـكنى حدثتك ، وما أنت فى حاجة إلى هذا الحديث ، بأن الذى انهزم فى المتنبى ليست طبيعته الخالصة ، و إنما هى طبيعة تكلفها الشاعر وخدعه عنها لفظه وغروره . فأما طبيعته الخالصة وهى طبيعة الشاعر المتهيئ للنبوغ ، فقد انتصرت من غير شك ، وكان ما حدث له فى طرابلس دليلا واضحا على أن انتصارها كان عظيما وفوزها كان مبينا حقا . وأنت تذكر أنه حين خرج من السجن مدح إسحق بن كيغلغ والى حمص للاخشيد ومخرجه من السجن بقصيدته الرائية التى يقول فيها :

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضمائِرُهُ

وغيَّضَ الدمعَ فانهلَّت بوادِرُهُ

ولم يستطع أن ينشده إياها فيما يقول الديوان لأن الأمير كره ذلك ، وتقدم إليه فى أن يبرح الأرض كما رجحنا . فقد كان إسحق بن كيغلغ هذا ما يزال على ولايته حين مر المتنبى بطرابلس ، وكان قد انتقل إليها من حمص ليبعد مستقره بعض البعد عن الحدود بين الاخشيديين والحمدانيين . فلما انتهى المتنبى إلى طرابلس وعرف الأمير مكانه رغب فى أن يمدحه كما مدح غيره من عمال الاخشيديين وقوادهم وأمرائهم . ونظر المتنبى فإذا هذا الأمير الذى كان يرغب عن شعره منذ اثنتى عشرة سنة يرغب فى شعره الآن . فلا تسل عن كبرياء الشاعر ، وما امتلأت نفسه به من الزهو والغرور ، وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذى رغب فيه ، ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفق ، وتشق عليه هذه الإهانة ، فيمسك الشاعر فى طرابلس لا يلقيه فى السجن ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجينا كالطليق ، وطليقا كالسجين . ولسنا ندرى كم أقام المتنبى على هذه

الحال فى طرابلس ، ولكن الظاهر أنه تغفل العيون التى أرصدت له ، فنفر من المدينة لا يقصد إلى الشمال مخافة أن يطلب فيؤخذ ، بل يقصد إلى الجنوب مشرقا ، وهو آمن أن يطلب من هذه الناحية .

وإذا هو فى دمشق بعد حين . ويخيل إلىّ أنه كان يريد الأمن والعافية أثناء إقامته فى دمشق ، حتى تتاح له الفرصة فيستأنف رحلته إلى الشمال ، وأنه من أجل هذا استجار بعلى بن صالح الروذبارى والى دمشق ، ومدحه بالزائية التى ذكرناها آنفاً . وهذه الزائية خليقة أن نقف عندها حينا ، لأنها تستحق شيئاً ولو قليلا من التأمل والتفكير . وحسبى أن ألفتك من أمرها إلى ثلاثة أشياء :

الأول والثانى منهما مشتركان بينها وبين أمثالها من هذه القصائد التى اختار لها المتنبى هذه القوافى الصعبة النادرة كذاليته فى مدح مساور بن محمد الرومى ، وقد مرت بك وكشينيته فى مدح أبى العشائر ، وستراها بعد حين .

والثالث مقصور عليها ، ولكن له خطره فى تصوير التزام المتنبى لرأيه حين يأمن ويستغنى ، وتضحيته بهذا

الرأى حين يخاف أو يطمع أو يحتاج . فأما الأمر الأول من هذه الأمور الثلاثة ، فهو أن صعوبة القافية وامتناعها يكلفان الشاعر شططا ، ويضطرانه إلى أن يصطنع ألفاظا ليست من لغة الشعر فى شىء ، وإنما هى إلى العامية المبتذلة أدنى منها إلى لغة الشعراء . ولكن ندرة القافية تضطر الشاعر إلى اصطناعها ، فيتورط فى ذلك لا مستخذيا منه ولا مستشعراً خجلا أو حياء .

وانظر إلى هذا البيت :

حَمَلَتْهُ حَمائِلُ الدهْرِ حتى
هِىَ مُحْتَاجَةٌ إلى خرّازِ

وإلى قافيته المبتذلة . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

شَغَلتْ قَلبَهُ حسانُ المعَالى
عن حِسانِ الوُجوهِ والأَعجازِ

فهل تعرف أسمج من هذه القافية وأصفق من هذا الطباق . وانظر أيضا إلى هذا البيت :

تَقْضَمُ الجمرَ والحَديدَ الأَعادى
دونَهُ قَضْمَ سُكَّرِ الأَهْوازِ

فلولا القافية وتحكمها فى الشاعر وامتناعها عليه ما احتاج هذا البيت إلى سكر الأهواز .

والأمر الثانى أن احتياج الشاعر إلى القوافى يستعبده للقافية ، ويكرهه على أن يستعبد الشعر ومعانيه للقافية أيضا . فهو يجمع الألفاظ التى تصلح قافية زائية أو ذالية أو شينية ، فإذا اجتمع له منها ما أراد ، نظم قصيدته على الزاى أو على الذال أو على الشين . وقد يضطر إلى معنى من المعانى ، لا لشىء إلا ليضع فى آخر البيت كلمة من الكلمات تصلح قافية . وانظر إلى هذا البيت :

سَلَّهُ الرَّكضُ بعدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ

فتَصَدَّى لِلغَيْثِ أهلُ الحِجازِ

فلولا أنه محتاج إلى أن يقيم بيته على الحجاز لما ذكر نجدا ، ولما نظم البيت كله . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

مَلِكٌ مُنشِدُ القَرِيضِ لَدَيهِ

يَضَعُ الثَوْبَ فى يَدَىْ بزّازِ

فقد جعل ممدوحه ملكا و بزازا ، لا لشىء إلا لأنه لا يريد أن تفلت منه هذه الكلمة المبتذلة . وانظر أيضاً إلى هذا البيت :

وَيَرَى أَنَّهُ البَصِيرُ بهذا

وَهْوَ فى العُمْيِ ضائعُ العُكَّازِ

فالمعنى فى هـذا البيت كله يتبع العكاز ولا يستدعيه .

ولست أدرى أين قرأت أن فكتور هوجو كان يجمع القوافى ويهيئها قبـل أن ينظم شعره . ولـكن الشىء الذى لا شك فيه أن ذوق فكتور هوجو كان يأبى عليه أن يذل للقافية حتى يتورط فى الابتذال . وما أظن إلا أن الشعراء جميعا يستعرضون ما قد يتهيأ لهم من القوافى ؛ ليختاروا منها لا ليحكموها فى أنفسهم وفى أذواق الناس .

ولعلى قصصت فى غير هذا الـكتاب ما رأيته من المرحوم زكى باشا حين كان يضع مقدمته لـكتاب التاج ، وكان يريد السجع ، فانتهى إلى كلمة المذكور أو المشهور لا أدرى ؛ ولم يجد لها مقابلا فالتمسه وأطال التماسه . فلما أعياه قرأ باب الراء كله من القاموس المحيط .

كذلك أو قريبا من ذلك صنع المتنبى فى هذه القصائد التى آثر فيها القوافى النادرة ، وكذلك أو قريبا من ذلك

صنع الصولى[1] فيما كان يحدث من الشعر لمولاه الراضى فى نفس هذا العصر أى أوائل القرن الرابع . وأنت واجد من ذلك فى كتاب الأوراق ما يرضيك و يغيظك معا .

أما الأمر الثالث فأشد من هذين الأمرين خطرا ؛ فقد مدح المتنبى قبل هذا الرجل جماعة من غير العرب ، ولكنه كان يتجنب التعرض لمدح أجناسهم الأجنبية و يكتفى بمدح أشخاصهم . فإن تجاوز أشخاصهم ، لم يعد ما لآبائهم من سابقة فى الإسلام وفى ظل الدولة العربية . أما فى هذه القصيدة فالمتنبى الذى اتخذ العربية لنفسه مذهبا سياسيا وفلسفيا يخرج عن مألوفه ، فيمدح هذا الرجل الفارسى ، و يمدح الفرس و يرقى بمدحه إلى الفرس قبل الإسلام . وانظر إليه كيف يقول :

لَيسَ كُلُّ السَّرَاةِ بالرُّوذَبار
ىِّ ولا كُلُّ ما يَطِيرُ بِبازِ
فارِسِىٌّ لهُ من المجدِ تاجٌ
كانَ من جوهرٍ على أَبْرَوازِ

(١) انظر وصيف الصولى لعلاقته بالراضى فى القسم الثانى من كتاب الأوراق

نَفسُهُ فوقَ كُلِّ أَصلٍ شَرِيفِ
ولوانّى لهُ إلى الشمسِ عازِ
شَغَلَتْ قلبَهُ حِسانُ المعالى
عن حِسانِ الوُجوهِ والأَعْجازِ

إلى أن يقول :

بكَ أَضحى شَبا الأَسِنَّةِ عِندى
كَشَبا أَسْوُقِ الجَرادِ النَوازِى
وانثنَى عَنِّى الرُدَيْنِىُّ حتى
دارَ دَوْرَ الحروفِ فى هَوَّازِ
وبآبائِكَ الكِرامِ التأَسِّى
والتسَلِّى عَمَّنْ مَضَى والتعازِى
تَرَكوا الأَرضَ بعدَ ما ذَلَّلوها
ومَشَتْ تحتَهُم بلا مِهْمازِ

فالمتنبى هنا شعوبى صريح ، لولا أننا نعرف أنه شاعر ساخر بالناس وبممدوحيه خاصــة ، أو بأكثرهم على أقل تقــدير .

ومن دمشق هجا المتنبي إسحق بن كيغلغ بميميته اللاذعة المشهورة (١) والتى أولها :

لِهَوَى القُلوبِ سريرةٌ لا تُعْلَمُ
عَرَضاً نَظَرْتُ وخلتُ أَنِّى أَسْلَمُ

وفى دمشق عرف المتنبي أن إسحق خرج للقاء الروم وتوعده . فقال فيه الأبيات التى أولها :

أَتانى كلامُ الجاهِلِ ابنِ كَيَغْلَغٍ
يَجُوبُ حُزوناً بَيْنَنَا وسُهولا

ثم بلغه أن غلمان إسحق عدوا عليه فقتلوه . فقال الأبيات التى أولها :

قالُوا لنَا ماتَ إسحقٌ فقُلْتُ لَهُم
هذَا الدَواءُ الَّذى يَشفِى مِنَ الحُمُقِ

وقد أعرض لهذا الهجاء فى غير هذا الموضع فحسبنا الآن

---

(١) وقد قال : إنه أنشأ هذه القصيدة فى طرابلس وتركها عند صديق له وكلفه أن يذيعها بعد أن يهرب ويبلغ مأمنه ، (انظر الواحدى صفحة ٣٣٩ .)

أن نلاحظ أنه يدل على أن عداواة المتنبى كانت باقية قاسية يعجز الموت نفسه عن محوها .

ولسنا ندرى كم أقام المتنبى فى دمشق ، ولكن المحقق أنه خرج منها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بعد مقتل ابن كيغلغ قاصدا إلى أنطاكية ، والديوان ينبئنا بأنه نزل ببعلبك ؛ فأكرمه حاكمها على بن عسكر ، وخلع عليه وأجازه ، وطمع فى مدحه ، ولكن المتنبى لم يزد على أن قال له هذه الأبيات :

رَوِينا يا ابنَ عَسكَرٍ الهُماما
ولم يترُكْ نَداكَ بِنا هُياما
وَصارَ أَحَبُّ ما تُهدِى إلينا
لِغَيْرِ قِلًى وَداعَكَ والسَّلاما
ولم نَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ المَوالِي
ولم نَذْمُمْ أَيادِيَكَ الجِساما
ولكنَّ الغُيُوثَ إذا تَوالَتْ
بِأَرْضِ مُسافِرٍ كَرِهَ الغَماما

وما أظن إلا أن هـذا البيت الأخير يصور ملل المتنبى وتبرمه لا بالعطاء ، فقد كان أحرص من أن يتبرم بالعطاء ، بل بهذا الإلحاح عليه فى طلب المديح . وقد مضى المتنبى من بعلبك حتى جاوز حدود الاخشيديين ودخل أرض الحمدانيين ؛ فاستقبل حياة جديدة ، مخالفة كل المخالفة لما ألف وما ألفنا من حياته .

وهو الآن فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وقد أصبح شاعرا عظيما يتحدث الناس به و بشعره فى شمال الشام وجنو بها ، وفى مصر عنـــد الاخشيديين ، وفى العراق عند العباسيين والبو يهيين .

وهو يعرف هذه الشهرة و يقدرها و يغالى بها ، فلا يمدح إلا من يريد أن يمدح ، وقد يمتنع على قوم ربما ودَّ فى يوم من الأيام لو استمعوا له أو التفتوا إليه . ولعلك تلاحظ أن ظاهرة قد اطردت فى حياة هذا الشاعر . فهو لم يستطع أن يرقى بفنه إلا فى ظل حام يحميه و يعطف عليه ، وهو لم يستطع أن يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقى بفنه شيئا فشيئا إلا فى كنف الأشراف والسادة والأمراء ، كأنه النبت الطفيلى

لا ينمو ولا يزهر إلا فى ظل الشجر الضخام المرتفعة فى السماء .

وثب فنُّه وثبته الأولى فى اللاذقية عنـد التنوخيين ، ثم وثب وثبته الثانية فى طبرية عند بدر بن عمار ، ثم استمسك واحتفظ بقوته أثناء المحنة الثانية . ولـكنه أزهر ونما وتضوع نشره فى ظل الاخشيدى الشاب ، وهاهو ذا الآن يتجاوز هؤلاء الأمراء والحكام الصغار إلى أمير خطير ، هو سيف الدولة ، ولـكنه لا يبلغ سيف الدولة فجأة ، وإنما يتوسل إليه بابن عمه أبى العشائر فى أنطاكية ، فلنتبعه فى هـذه المدينة لنرى ماذا يصنع فيها ، وأى وسيلة يبتغى إلى إرضاء هذا الحاكم ليرقى على أكتافه إلى سيف الدولة .

٨

ويظهر أنه لم يرحل من دمشق حين أراد الرحيل وحين آمنت له الطريق ، وإنما تأخر فيها عن رضى واختيار ، لا عن سخط وإكراه ، فقد بلغه فيما يظن أن حال أبى العشائر فى أنطاكية ليست على ما يحب ، وأنه قد انهزم لبعض المغيرين عليه ، وتعرض للخطر فلبث فى دمشق يريد أن يعلم على من تدور الدائرة ، كما انتظر فى الرملة يريد أن يعرف عاقبة الحرب بين سيف الدولة وكافور .

ودارت الدائرة على عدو أبى العشائر فكر هذا بعد الهزيمة منتصراً ، وانتهت أخبار فوزه إلى المتنبى ، فخف من دمشق ، وقد أعد فيها أولى مدائحه لهذا الحاكم ، وكأنه فى ذلك الوقت كان مشغوفاً بشوارد القوافى ، فآثر لقصيدته قافية الشين ، وخضع فيها لمثل ما خضع له فى زائيته التى مدح بها الروذبارى من الذل والصغار أمام تحكم القافية الصعبة ، ولست فى حاجة إلى أن أدلك على مظاهر هذا

فى هـذه القصيدة ، فحسبك ما قلت من ذلك فى القصيدة الماضية ، وأنت واجد فى الشينية للقراءة الأولى من ذلك ما تشتهى وما لا تشتهى .

ومطلع هذه القصيدة غريب لا يخلو من حأحأة وشأشأة ثقيلين مصدرهما تحكم القافية هذا وهو قوله :

مَبِيتى من دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِى
حَشَاهُ لى بِحَرٍّ حَشَاىَ حاشِ

ومن يدرى ؟ لعل المتنبى و بعض المعجبين به كانوا يجدون فى هذه الحأحأة والشأشأة جمالا وظرفا ، والله يهب حسن الذوق لمن يشاء ، ولست أقف من هـذه القصيدة إلا عند قوله :

أَتَى خَـبَرُ الأمِير فَقِيلَ كَرُّوا
فَقُلْتُ نعمْ ولوْ لَحِقُوا بِشَاشِ
يَقُودُهُمُ إلى الهيْجَا لَجُوجٌ
يُسِنُّ قِتَالَه والكَرُّ ناشى
وأَسرَجْتُ الكُمَيْتَ فَنَاقَلَتْ بى
عَلَى إعقاقِها وعلى غِشاشى

فالمتنبي يتكثر فى هذه الأبيات و يزعم أنه لما علم بكر الأمير أسرع إليه يشاركه فى حسن البلاء . وأكبر الظن أنه كان خائفاً أن يبلغ أبا العشائر منهزما . فلما علم بانتصاره خف إليه . وقد وصل المتنبي عند أبي العشائر وهو مكبر لنفسه مستشعر عظمته وتفوقه على الشعراء . وهو من أجل ذلك يهاجم ، ولا ينتظر أن يضطر إلى الدفاع . فانظر إلى قوله :

فَسِرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ المعَالِي
وسَارَ سِوَاىَ فى طلَبِ المعَاشِ

ومدح المتنبي أبا العشائر بعد أن استقر عنده بقافيته المشهورة التى أولها :

أتُرَاها لكَثْرَةِ العُشَّاقِ
تَحْسَبُ الدَّمعَ خِلقةً فى المآقِي

وفى هذا البيت مظهر من جمال تبدو فيه صنعة وتكلف ولكن اقرأ ما بعده فسترى تكلفا لا يطاق :

كيفَ تَرْثِى التى ترَى كلَّ جَفْنٍ
رَآها غيرَ جَفْنِها غيرَ رَاقِى

وما أرى إلا أنك تضيق مثلى بهـذا التكلف المرذول الذى يظهر فى هذا المعنى السقيم وفى هذا اللفظ المعقد الرث كأنه نسج العنكبوت ثم يقول :

أنتِ منّا فتنْتِ نفسَك لـكنّـ

كِ عُوفيتِ من ضنًى واشتياقِ

ولم يكفه ما مضى من سخف حتى أمعن فى هذا السخف الجديد ، فجعل صاحبته تعشق نفسها ، ولـكنها لا تشكو ألم العشق ؛ لأنها ظافرة من نفسها بما تريد من الوصال ، ثم يقول :

حُلتِ دُونَ المزارِ فاليومَ لو زُرْ

تِ لحَالَ النُحولُ دُونَ العِناقِ

وهو رجوع إلى المعنى الذى استخرجه فى صباه ورجع إليه كثيرا بعد ذلك وهو قوله :

كفى بجِسْمِى نُحولا أننى رَجُلٌ

لولا مُخاطبَتِى إياكَ لَمْ تَرَنى

وانظر إلى هذا البيت الذى يخاطب فيه ممدوحه والذى تتحكم القافية فيه تحكما ثقيلا :

لو تنكَّرتَ فى المَكرِ لقومٍ

حَلفُوا أنَّكَ ابنهُ بالطلاقِ

ولكن قف عند هذه الأبيات فسيعجبك ما فيها من حكمة وسيلفتك ما فيها من فخر :

إلفُ هذا الهواءِ أوقعَ فى الأنْـ

ـفُسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المذاقِ

والأَسى قبلَ فُرْقَةِ الرُوحِ عَجْزٌ

والأسَى لا يكون بعد الفِراقِ

كَمْ ثَراء فرّجْتَ بالرُمحِ عنه

كان من بُخْلِ أهلِهِ فى وَثاقِ

والغِنى فى يَدِ اللَّئيمِ قَبيحٌ

قَدْرَ قُبحِ الكَرِيمِ فى الإملاقِ

لَيسَ قَولى فى شمسِ فِعلكَ كالشمـ

ـسِ ولكنْ كالشمسِ فى الإشراقِ

شاعِرُ المَجْدِ خِدْنُهُ شاعِرُ اللَّفْـ

ـظِ كلانا ربُّ المعانى الدِقاقِ

لم تزَلْ تسمَعُ المديحَ ولـكِنْ

نَ صهيلَ الجيادِ غيرُ النُهاقِ

وأحفظ قوله شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ . فإن هذا المعنى نواة إن صح هذا التعبير ستنبت وتنمو وتعطى شعرا كثيرا مختلفا ألوانه حين يتصل المتنبى بسيف الدولة .

وليس من شك فى أن تعريضه بالشعراء ، ثم تصريحه بذمهم والغض منهم فى البيت الذى رويناه آنفا حين جعل نفسه جوادا وجعلهم حميرا ؛ قد هاج الشعراء عليه وأغراهم بالـكيد له . فلم ينوا عن ذلك ولم يقصروا فيه ، ولـكن المتنبى لم ينهزم لهم ولم يفر منهم ، كما فعل مع الذين كادوا له عند بدر ابن عمار ، وإنما ثبت لهم وألح فى الهجوم عليهم ، وكان يرى أن هذه الموقعة حاسمة بينه وبين الدهر الذى يخاصمه . فهو إن انهزم رد إلى شقاء متصل ، وإن انتصر بلغ ما أمّله من الوصول إلى سيف الدولة .

وقد تم له الانتصار بهذه القصيدة الرائعة التى هى أروع ما قال فى أبى العشائر ، والتى روينا لك بعضها فى أول هذا الـكتاب . ومطلعها :

لا تَحسِبُوا رَبْعَكُمْ ولا طَلَلَهْ

أَوَّل حَيٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَهْ

والمضى فى قراءة هذه القصيدة يقنعك بأن المتنبى كان يتمثل حين أنشأها لامية الأعشى التى أولها :

إنّ مَحَلًّا وإنّ مُرْتَحَلاً

وإنّ فى السَّفرِ إذْ مَضَوْا مَهَلا

والغزل فى أول القصيدة حلو يبلغ النفوس على ما فيه من تكلف غير مملول . فإذا فرغ منه وثب إلى الدفاع عن نفسه والفخر بها فى شعر مرّ لاذع مُسكت للخصم .

ولست فى حاجة إلى أن أعيد روايته ، فقد رويته فيما مضى من هذا الحديث . ثم يصل إلى أبى العشائر فيمدحه مدحا عذبا شائقا متينا يصلح للغناء ، وقلما يصلح مدح المتنبى للغناء قبل وصوله إلى سيف الدولة .

وانظر إلى قوله :

مَالِىَ لاَ أَمْدَح الحُسَيْنَ وَلاَ

أَبْذُلُ مِثْلَ الوُدِّ الذِى بذَلَهْ

أَأَخْفَتِ الْعَيْنُ عِنْدَهُ أَثَراً
أَمْ بَلَغَ الْكَيْذُبانُ مَا أَمَلَهْ

ثم انظر إلى قوله :

قد هَذَّبتْ فَهْمَهُ الفَقَاهَةُ لى
وهَذَّبتْ شِعْرِىَ الفصاحةُ له
فَصرْتُ كالسيفِ حامِدًا يَدَهُ
لا يَحمدُ السيفُ كلَّ مَنْ حَمَلَهْ

وأنا أختار للمتنبى فى أبى العشائر كلمتين أخريين يقول فى أحداهما :

النّاسُ مَا لم يرَوْكَ أَشْباهُ
والدهرُ لفظٌ وأنتَ مَعْنَاهُ

ويقول فى الأخرى :

لامَ أُناسٌ أبا العشَائرِ فى
جُودِ يَدَيهِ بالعَيْنِ والوَرِقِ

والمتنبى فى أبى العشائر مقطوعات كثيرة أخرى فى موضوعات مختلفة . فقد سار الشاعر مع هذا الأمير سيرته مع

على بن ابراهيم التنوخى وبدر بن عمار والحسن بن عبيد الله الأخشيدى ، فكان نديما سريعا إلى قول الشعر مسرفا فى الارتجال ، مطيعا لمولاه ، يقول حين يريده على القول وحين لا يريده عليه .

وله كلمة أخرى قالها معاتباً لأبى العشائر حين أرصد له نفرا من غلمانه ليقتلوه فأفلت منهم ، ولكن أوان الحديث عن هذه الكلمة لم يأن بعد . وأنا أرجح أن أبا الطيب قد وصل إلى أبى العشائر فى أواخر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فأتمها عنده ، وأقام معه وجها من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة حتى قدم سيف الدولة أنطاكية فى جمادى الأولى من هذه السنة ، فمدحه واتصل به وانتقل معه إلى حلب .

23 FEB 1988

LIBRARY

AUC - LIBRARY

DATE DUE

A.U.C 15 JUL 1996	A.U.C 4 - JAN 1999
A.U.C - 7 DEC 1996	A.U.C 2 - MAY 1999
A.U.C 3 - AUG 1997	
A.U.C 1 - DEC 1997	
A.U.C 12 MAY 1998	

00000004 9854

PJ 7750 M8 Z85 1936/v.1 c.1

د. 1184 3536
ر. 13161878

23 FEB 1989